

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY



3 8534 00848 6288

1478

٥٥-88423

Print Des 11/14

1615



FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO

من مكتبة
الجامعة الامريكية بالقاه

١١٣
٣٥

٤

*

عمر ١٧
وقف
عبد
عاصم



عبد العزيز سيّد الأهل

المفتش بوزارة المعارف المصرية
والأستاذ بالكلية العملية في بيروت

٨١/٣١٩

DJ
7745
B8
23x
1953

عَبْقَرِيَّةُ الْحُرْمِي

دار العلم للملايين

بيروت

شباط ١٩٥٣

١١
١١
١٤
٩٢

٨١١, ٢٠٩
١٤٥٥

١١٩

جميع الحقوق محفوظة

36697⁵

الطبعة الأولى
شباط ١٩٥٣

مقدمة

سنحاول في كتابنا هذا - جاهدين - ان نلقي على
البحثري وصناعته ضوءاً جديداً ، وإننا لنقرر - ونحن نشعل
هذا الضوء - اننا لن نلقي قولاً بلا دليل ، بل إننا لن نترك
لأنفسنا ان نبدي رأياً دون الثقة فيه ، ولن نلقي لرأي بالاً
إلا اذا كان صادراً عن الثقات الذين يُعنتون أنفسهم للوصول
إلى ما له قيمة من الآراء .

وسيرى القارىء - حقاً - اننا قلنا شيئاً جديداً في البحثري
وهو الشاعر الذي يدرك الناس لأول وهلة من ذكر اسمه
انه في غنى عن الدراسة لسهولة شعره ، ونزولاً على ما ذاع
عنه ، وتأثراً بما شاع من مشهوراته ، ولم يعلموا ان وراء
هذه السهولة المطمئنة صعوبة رابية يتعب في مدى تبيانها
والوصول الى اسرارها الضوء اللامع والفكر الثاقب .

ومهما رأى القارىء من جهد بذلناه في كتابنا هذا فانه
سيراه عجالة قصيرة وإجمالاً موجزاً ، فالبحثري وديان شعره
تاريخ حافل بحوادث يزيد زمنها على نصف قرن من الزمان .
وقد حدث فيه من الحوادث والتقلبات ما جعل المجتمع متغيراً

حولاً ، وما ولد أو عدل أو أثار من الآراء والافكار أعداداً
لا تعد واشياء لا تحصى .

وقد حشد البحثري في ديوانه تفاصيل بيئات مختلفة الأرض
في العراق والشام ، وما يجاوزهما الى مصر وارض العجم ،
ودون اموراً كباراً وصغاراً للطبيعة الصامتة والمتحركة وما
صنعه الناس او جبلوا عليه . ومثل هذا الديوان يحتاج في
إحصاء جزئياته - دون ادنى مبالغة - الى مجلدات .

وفي ظني ان البحثري بعد هذه الدراسة العميقة الشاملة لم يزل
مجهول كثير من النواحي ، وما أظن غيبي ممن درسوا البحثري
- وهم قليل - يجاوز هذا الظن في نفسه ، إلا اذا ملكه
الغرور الذي نعوذ بالله منه ، وما على من يريد ان يتحقق من
أننا لا نهول إلا ان يذهب الى ديوانه ليرى أمامه بحراً
لا حدود لشطآنه ، وهو جد مصطبخ تأثر الاضطراب ، يشتهي
رجالاً صُبراً على البحث على مرّ الشهور والسنين .

وفي كتب الأدب القديمة أخبار مجموعة او مبعثرة عن
حياة البحثري وشعره ، ولكنها كانت على طرائق القدماء ،
يعجلون بالنظرة الاجمالية أو يقعون على الاجزاء والتفاصيل ،
ثم يختار كل ما يهواه . واهم الكتب التي خصصت انفسها
له كتاب عبث الوليد لأبي العلاء وكتاب الموازنة للآمدي ،
والأول يجد في البحث عما يعيبه ، والثاني يجد في البحث
عما ينصفه ، وهما وراء المعاني الجزئية أو الالفاظ المفردة أو
التراكيب ، فالدراسة مملولة ، والنغمة واحدة لا تطرب ولا تشجي .

ولكننا لا ندع كتب عبد القاهر وابي هلال و « عمدة »
 ابن رشيقي و « زهر » القيرواني من بين الكتب القديمة دون
 ان نشي على ما قدمته لنا من صحائف مملوءة بما يشبع ويشفي .
 أما البحوث الجديدة فكان ادق ما قرأته منها كتاب
 « البحتري » لجرس كنعان وهو حقاً درس وتحليل كما سماه
 وقد شق فيه الجهد وثقب الفكر ، ثم كتاب « طيف الوليد »
 لعبد السلام رستم وهو احفل مؤلف في تاريخ الرجال الذين
 وصل البحتري بهم حياته لامتداد سلطانهم إذ ذاك على نواحي
 الحياة . ثم ما كتبه طه حسين في حديث الشعر والنثر ، وطه
 حسين فيه كالبحتري تماماً يقرّب البعيد ويتألف الغريب ، وقد
 ضمّ في سطورهِ القليلة أطراف البحتري . وهناك كلمة في كتاب
 الرؤوس لمارون عبود ، وهي على طريقته الجادة اللاعبة ،
 ومارون عبود جعبة ممتلئة وكلمة بارعة . اما ما كتب عنه في
 الدراسات المقيدة بقوى الطلاب فشيء كثير ، ولا يخلو اكثره
 من جهد مشكور .

وبرغم ذلك كله فان كتاب البحتري لم يزل مغلقاً ، وإن
 له خطراً ابلغ مما يُظن ، فهذا الشاعر الذي قالوا فيه انه
 جاء يشعر فغنى كان جديراً بما وصف به ، وانه حقاً ليسرك
 حتى تتملأ ، ويرقق منك حتى ترهف ، ويدعوك حتى تشور ،
 ويبكيك حتى لا يحمد في عينيك دمع ، ولو لزمت ديوانه
 وعشت ثمانين عاماً - وبلّغتها - اظلت تضحك معه وتعجب
 به ، وتبكي معه وتعجب منه !

قول
الناس

ولم أكن أخشى أحداً حين أقدمت على هذه الدراسة
إلا أصحاباً لي كانوا قد قالوا : ان كتابك في عبقرية ابي تمام
جاء صعباً كأبي تمام ، وأنا أخشاهم غداً ان يقولوا ان كتابك
في البحري جاء سهلاً كالبحري . ولكنني أحسست غير ما رأوا ،
فحين درست ابا تمام وجدت صعوبة معينة على الدراسة
ميسرة لها ، وحين جئت الى سهولة البحري احتجت فيها
الى مشقة وكلفة افقدتني الاحساس بالزمن الذي يمر من حولي
في دجلة وبياض .

ثم جعلت الكتاب ثلاثة ابواب ، كما كنت جعلت كتاب
عبقرية ابي تمام :

الباب الاول : في مزايا الشاعر ، وهي تناول طبعه
وتقليده وطريق دراسته ، ثم اجماع الناس
عليه بالفضل في زمانه وبعد زمانه الى اليوم .

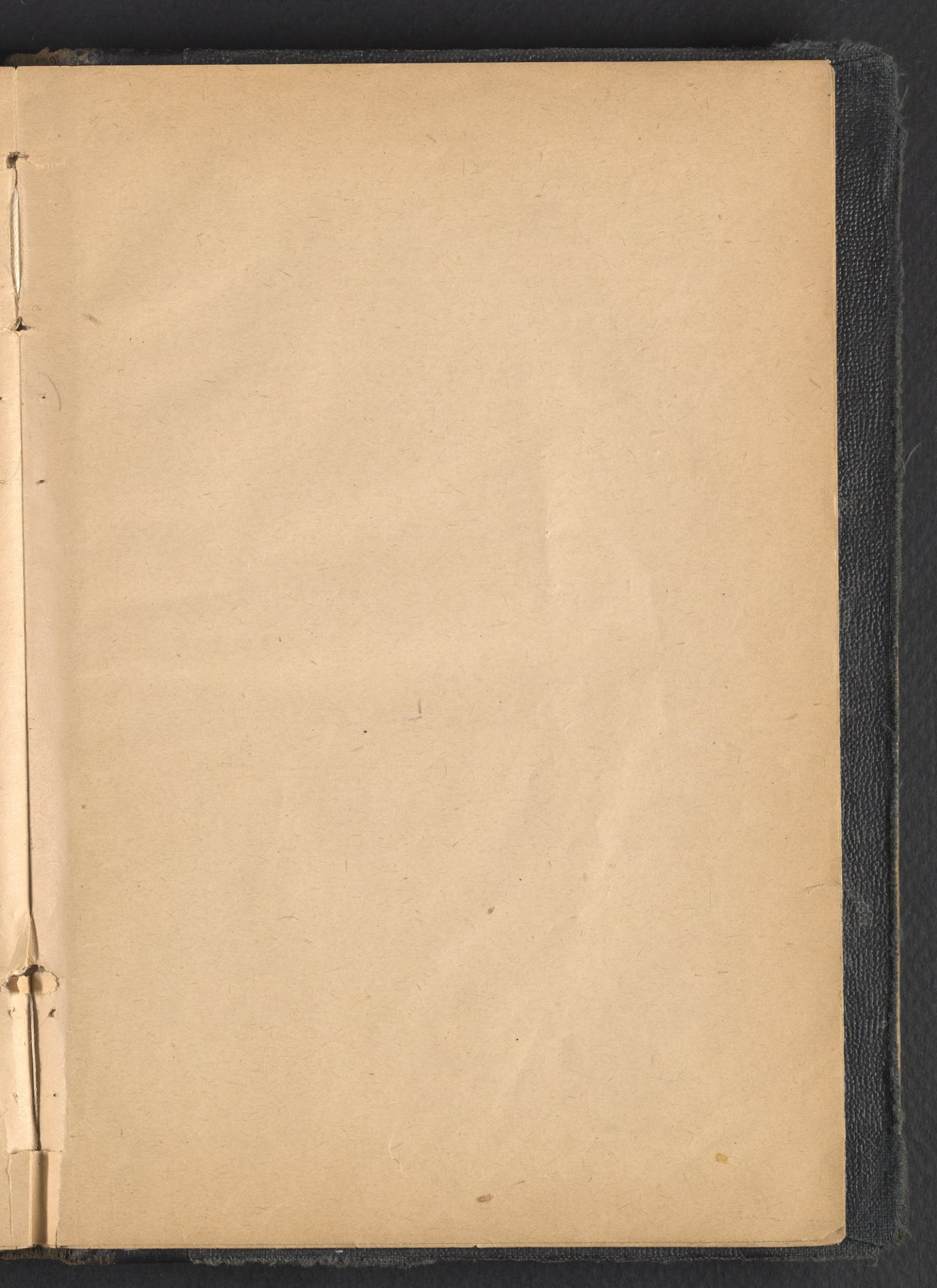
والباب الثاني : وهو الغرض الاصيل من الكتاب ،
شرحت فيه طريقة اختياره لألفاظه المفردة ،
ثم طريقته في تزويج الكلمات بروابط النسب
القوية ، ثم سرت معه في نظم المعاني تنصيذاً
وتجويداً ، وأنهيت الباب بالكلام على
تهذيب شعره وبناء قصيدته .

والباب الثالث : تحدثت فيه عن مشهورات البحري أبياتاً
مفردة ومقطعات مقطوعة أو مستقلة ،
وقصائد فريدة .

وقد أنفذت وراء ذلك كله رأياً لعله كشف بعض ما لم
يعرف من قبل ، وأنا راجٍ ان يظفر برضا المنصفين . ثم
أسلتُ في دراستي له جامد البلاغة لتتحول الى حياة نابضة
مع شعره . وهذا رأي رأيته ، أدعه للزمن ، والزمن مُنخل
الآراء ، وفي اهتزازاته بين يدي التاريخ يستقر في الحلد كل
رأي قوي بديع ، من حيث يُرمَى بكل رأي ضعيف مشين ،
ويموت صيت الادعياء في غير ضجة ولا أحزان . « فاما
الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض
كذلك يضرب الله الأمثال » .

عبد العزيز سبيح الامل

بيروت في ١/١/١٩٥٣





الباب الاول

مزاي الشاعر



الى شبهة الحضارة — المزاج الحاد — بعض الاحتمال
انتظام الدراسة — التقليد والطبع — الاجماع عليه .

الى شبهة الحضارة



وقد الوليد بن عبيد البحتري على حلب وهو فتي ،
ولم يكند يقيم بها حتى ألقى بقلبه بين يدي فتاة تغني للناس
عامة . وكانت الحياة في حلب غيرها في منبج ، فبلده مع
ما يستمتع به من خصب وسعة فناء وبهجة بساتين كان غائباً
في أثناء البادية . أما حلب فبلد في تيار الحضارة ، تلتهقي به
قوافل التجارة فتروج السوق وتنشط الاعمال وتزدحم الآراء
فتتعاذى أو تتفق . ويجد اللهو والمرح مكاناً فسيحاً في حلب
لوفرة ما فيها من غنى وشدة ما فيها من زحام .
فلما انتقل البحتري الى هذا التيار الفائر لم يدر غير دورة

حتى التقى بعلوة بنت زُرَيْقة في ذات مساء وفي ملهى للغناء
فأحبها ، وجعل يتبعها في اماكن اللهو بين أفياء حلب في
حدائق الظهران (١) وعلى ضفاف قويق (٢) وعند ضاحية
بطياس (٣) وباب قنسنرين (٤) . وبدأت هذه الفتاة الشادية
والتي كانت حديثة عهد بالغناء في عين الشاب القادم من أم
البادية فتنة الدنيا وجمالها

ورآها في عينيهِ بادية المحاسن أعصناً معتدلاً لدناً قد أنعشتها
نعومة الصبا ، ذات عنين حوراوين وراءهما معنى لامرأة لم
يعرفه في منبج ولم يحس بمثله . وخدعه منها انها فتاة خجول
إذا اعترتها خجلة اتقدت وجنتاها ناراً . وسمع بقلبه المشبوب
لصوتها فأصغى له وحده وتقاه من بين دقات الأعواد والأوتار
ثم تصوره صوتاً غنياً عن هذه الآلات المساعدة التي تعين
القيان على تحسين الألحان .

وما أظن البحتري كان يعلم شيئاً من أصول الغناء حين
وفد على حلب . ولعله جاء إليها وهو لا يسيغ إلا انطلاق
الاصوات به في البادية من غير قيد ، فلما سمع إلى العود
والأوتار تكتم الصوت وتقيدته في حدود النغم المرسوم ،

(١) لعل مكان هذه الحدائق هو المكان المزروع الآن تحت جبل
الجوشن ويسمى الزهرة وهو مكان جد خصيب .

(٢) يقولون إن مجرى قويق كان غير مجراه الحالي ولم يكن
حاله كما هو الآن .

(٣) و (٤) محلتان من حلب القديمة كانت دار علوة بينهما وهما
بأعلى النهر من قويق .

وسمع الغناء في حلب مقيداً بأصول النغم ، وسمع في صوت
علوة انطلاق أصوات البادية ، وأصغى للصوتين ودّ لو تركت
علوة تغني بغير مساعد من الآلات ، فإنها حين تطلق اللحن
تعجز الأوتار أن تنطلق معها . بل هي تجور على صوتها
فتخنقه ليظل عند ما أُحدد له من نغم مرسوم (١) .

بيضاء رَوْدُ الشباب قد غمست في خجل دائم يعصرها
مجدولة هزها الصبا فشجا قلبك مسموعها ومنظرها
لا تبعث العود تستعين به ولا تبث الأوتار تخفرها
هكذا قال يصف علوة ويصف غناءها ، وهو على ما فيه
من غلو يدل على أن البحري - أول عهده بالمدينة - كان
أميل في الغناء للأصوات المنطلقة بلا قيد ، وهو أثر للبادية
في ذوقه ظل يشده إليه من وسط الأذواق الجديدة التي
زحمتها ، ولم تزل به حتى قسرت على أن يختلط بها ، وهو
كذلك أول دليل يلقاك من حياة البحري ليخبرك أن
الشاعر متأثر بالسليقة إلى حد كبير .

ثم جرت بينه وبين علوة أمور كانت خليفة أن تشغل
قلبه بها ، فأما زريقة كانت امرأة تعرف بالمزاولة دخائل
الرجال ، فوقفت حائلاً بينه وبين ابنتها ، تقصيه وتقسي
قلبها وتقطع بينها ، وما لبثت علوة أن تعلمت صنعة السوق
ففتوت عند لقائه وقصرت في توديعه ، ومالت إلى فضل
خمارها تمسح عن فمها أثر قبلاته وأقبلت إلى الوشاة تميل معهم

(١) البحري ص ١٢٦ .

وتقبل فيه عندهم .

تلك التي لم يعد لها قصد الهوى مالت مع الواشين كل ميل
عجلت إلى فضل الخمار فأثرت عذباته بمواضع التقييل
وما كان ذلك منها ومن أمها إلا لانه قد هام بها ، ولعل
علوة كانت تفعله لتزيده انتباهاً إليها وتردداً عليها .

ولم ينس البحري قط في حياته التي طالت إلى ثمانين
عاماً صاحبه هذه لأنها كانت الأولى . وودّ حين رحل إلى
العراق أن تصحبه فلم تفعل . وربحت علوة بهذه الصلة ثلث
ديوان البحري أو أقل قليلاً ، وربحت حلب والظهران
وقويق وبطياس وباب قنسرين كثيراً من الذكر اللاهف في
شعره ، وكان خليقاً ببغداد وقصورها ودور لهُوها أن تنسه
صاحبه ولكنه ظل يذكرها ويتقدم باسمها أو بكُنًى كثيرة
عنها في قصائد مدحه للخلفاء والادباء والاصدقاء . ثم تحولت
علوة من جسد إلى طيف وخيال ، فلما هزلت فيه عوامل الصبوة
تحول ذلك الجسد والطيف إلى رمز للوطن وذكريات للشباب :

نُلبحُ من الغرام إذا اعترانا وأبرح منه ألا يعترينا
ومن سقم مبيت المرء خلواً بلا سقم يبيت له رهينا
شركنا العيش ما ندع التصابي لواجدة ولا تدع الحنينا
إذا بدأت لنا أسلوب شوق رأينا في الصباية ما تُرينا
ويقول :

خيال يعتريني في المنام لسكري اللحظ فائنة القوام
لعلوة إنها شجن نفسي وبلبال لقلبي المستهام

تطور
علاقته
واحدة
بعلوة

سلام الله كل صباح يوم عليك ومن يبلغ لي سلامي
لئن قلّ التواصل أو تمادى بنا الهجران عاما بعد عام
فكم من نظرة لي من بعيد إليك وزورة لك في اكتتام
أأخذ العراق هوىً وداراً ومن أهواه في ارض الشام

✓ وحين انتقل البحتري من حلب الى بغداد كانت له نصف
الجرأة على مسارح اللهو ، قد أطلقته حلب وشدته منبج فهو
يتوجع بين الاقدام والاحجام ويحس به ، أعقب إحساساً ولم
يحس بهذا الشعور احدٌ كما أحس البحتري حين يصف ما بين
الحلقين بقوله وهو يصف لقاء الفتح بن خاقان للأسد :

فأحجم لما لم يجد فيك مطمعا وأقدم لما لم يجد عنك مهربا
فلم يغنه أن كرّ نخوك مقبلاً ولم ينجه أن حاد عنك منكبا
وما أظن هذا المعنى قد لان لشاعر كما لان للبحتري
لأحساسه به من دخيلة نفسه .

✓ ثم اندفع البحتري الى شبه الحضارة فشرب ولكن وراء
ستار من التصون والتخفي . ثم دعا أصدقاءه الى الشرب في
الخفاء ، وصحبهم الى الديارات البعيدة ، واستهدى الاشربة
في سرّ من الاصدقاء والخمارين واستعان بالعمال . ولم تصبح
أقواله في الخمر تقليد شاعر وإنما هي تدل على ذواق شروب .
وليس أبلغ في الدلالة على تصوّنه وتخفيه من قوله :

اليوم دجن والدار قطربل فيها عن الشاغلين منتزع

(١) في قوله : عن الشاغلين منتزع قلب إذ الاصل عن النازحين شغل ،
وهو أمر جائز في اللغة .

وإن أردت اجترّاح سيئة فيها هنا السيئات تجترّح
وهناك رسالة منه لمحمد بن يزيد المبرود يدعوه فيها الى
مجلسه يوم السبت ويوصيه بالاستتار حين مجيئه لئلا يراه الرقباء :
يوم سبت وعندنا ما كفى الحرّ طعام والورد منا قريب
ولنا مجلس على النهر فيّاً ح فسيح ترتاح فيه القلوب
ودوام المدام يدنيك ممن كنت تهوى وإن جفاك الحبيب
فائتسنا يا محمد بن يزيد في استتار كي لا يراك الرقيب
نطرد الهم باصطبّاح ثلاث متوعات تنفي بهن الكروب
إن في الراح راحة من جوى الحب وقلبي الى الأديب طروب
لا يرعك المشيب مني فإني ما ثنائي عن التصابي المشيب
وشيء آخر هام في هذه الرسالة وهو انه انما يشرب
ليدنيه الشرب من حبيبه الذي جفاه ، ويدنيه منه في أحاديث
الذكريات ، وهي طريقة للتسلي ، ولكنها في نجوة عن عيون
الناس وبين الاصدقاء المتصونين .

وقد أخبر جحظة البرمكي النديم المغني انه ذهب معه ذات
مرة الى دير قني ، فلما بلغاه قال له البحثري : ويحك
با جحظة ! أهذا دير قني وهو من الحسن والطيب على ما ترى
وأنت أنت ، وطنبورك طنبورك ؟ فهل لك ان نقيم به
اليوم فنشرب ونطرب وننعم ونلعب ! فقال له جحظة :
نعم ! ولم يكن معها نبيذ ، فسألا عن يقرب منهما من العمال ،
فلما عرفا أنه عيسى بن فرّخان الفارسي كتب اليه البحثري :
يا بن عيسى بن فرّخان وللفرّس بعيسى بن فرّخان افتخار

قد حللنا بدير قني وما نبه غمي قرى غير ان يكون عقار
فاسق من حيث كان يشرب كسرى عصبية كلهم ظماء حرار
من كميت تولت الشمس منها ما تولته من سواها النار
قال جحظة : فوجه الينا عيسى بن فرخان عشرين دنأ
شرابا ، ومائة دجاجة ، وعشرين حملا وفاكهة ، وعملت في
الأبيات لحناً ، فلم نزل نشرب عليه يومنا وليلتنا (١) .
وهكذا وقع البحتري في شبه الحضارة حين فارق منبعج
فلقي امرأة السوق وعرف الخمر والغناء ثم فهم مفاهيم
الاحاد وكاد ينغمس .

المزاج الطار

وصحب هذه العاطفة المشبوبة المتصونة مزاج حاد يعن
في الاسراف ، يصلب ان أراد الوفاء فلا يتحول ولو كان
فيه الهلك والدمار ، ويسرع في التغير والتقلب ولو كان فيه
العيب والشنار . وأمر البحتري في ذلك أمر عجيب إذ هو
وفي مؤمن بالوفاء اخلص الايمان ، مذبذب متروك الى حد
يهون عليه فيه الجحود والكفران .

بقي على حب علوة - كما علمت - فلم يردعه عنها عدل
او يحول قلبه سنّ او غربة حتى اصبحت معه كالرئي الذي
يصحب الشاعر فيوحي اليه الشعر في خرافات العرب ، وثبت
على حب المتوكل وحب وزيره الفتح بن خاقان ، وصرح

(١) مسالك الأبصار ج ١ ص ٢٥٨ .

✓
في رثائه لهما ورثائه للمتوكل خاصة بما لا يؤمنه من الخوف
أو ينجيهِ من العقاب ، ومن ذلك قوله في رائيته :
وهل أرتجي أن يطلب الدم واتر

—
يَدَ الدهر والموتور بالدم واتر
أكان وليّ العهد أضمر غدره
فمن عجب ان ولي الأمر غادره
فلا ملّي الباقي تراث الذي مضى

ولا حملت ذاك الدماء منابر
هذه القصيدة التي قال فيها ابو العباس ثعلب : ما قيلت
هاشمية احسن منها ، وقد صرح فيها تصريح من أذهلته
المصائب عن تخوّف العواقب (١) . بل ان البحثري كان
كلما طال البعد بينه وبين المتوكل والفتح عطف عليهما وارتاح
في شعره لذكرهما . ومن ذلك قوله في بعض ممدوحيه :
تداركني الاحسان منك ونالي على فاقة ذاك الندى والتطوّل
ودافعت عني حين لا الفتح يرتجي لدفع الأذى عني ولا المتوكل
وقوله :

مضى جعفر والفتح بين مؤسّد وبين قتيل في الدماء مضرّج
أطلب انصاراً على الدهر بعدما ثوى منهما في الثوب أوسي وخزرجي

وبينا يفي لهؤلاء ولأبي تمام هذا الوفاء ويُخطر بنفسه
امام قنلة الخليفة ووزيره وفيهم ولي العهد الذي صار خليفة

(٢) زهر الآداب ج ١ (ط ٢) ص ٢٦٢ .

إذا به يقف من بعض من مدحهم مواقف متضادة تشين هذا
الخلق فيه أو تنفيه عنه حتى رموه بنجث الأصل والفرع
واتهموه بكفر الاحسان . وقد رماه احمد بن خلاد واحمد
ابن ابي طاهر بأشنع الهجاء ، فقال فيه ابن خلاد : لا اعرف
احداً أخبث اصلاً وفرعاً ولا اكفر لاحسان من البحتري !
واستدل على صدق قوله بدخوله بالنفاق على الخلفاء واحداً
بعد الآخر وبالذم بعد المدح . وقال ابن ابي طاهر : ما
رأيت أقل وفاء من البحتري ولا أسقط ! واستدل على
صدق قوله بموقفين له متضادين ، عاد في الثاني بهجاء ابن
الحصيب وكان البحتري مدحه من قبل فأحسن اليه ابن الحصيب
ووصله بالخليفة فنال جوائز .

ثم نسبوا الى البحتري انه هجا نحواً من اربعين رئيساً
من مدحهم ، منهم خليفتان ، وهما المنتصر والمستعين ،
وساق بعدهما الوزراء ورؤساء القواد ومن جرى مجراهم من
جللة الكتاب والعمال ووجوه القضاة والكبراء بعد أن مدحهم
وأخذ جوائزهم ، وقالوا إن حاله في ذلك تنبئ عن سوء
العهد ونجث الطريقة .

وخضع البحتري لهذا المزاج الحاد والطبع المتقلب فنقل
نحواً من عشرين قصيدة من مدائحه لجماعة توفّر حظه منهم
ونقلها الى مدح غيرهم وأمات أسماء من مدحهم أولاً . وقد
كان البحتري في غنى عن أن ينقل مدائحه من اشخاص
لآخرين لانه كان واسع الذرع بقول الشعر مقتدراً على التوسع

فيه ، ولكنه استجاب لطبعه . ولعله رأى أولئك الممدوحين
القدماء لا تستحق أسماؤهم ان تخلد في قصائده فنقلها الى
غيرهم ، ثم لعله رأى أيضاً ان هؤلاء الممدوحين الجدد
لا يستحقون كدّ الحُطّاط فنقل اليهم قصائده القديمة ، ولعل ذلك
كله حدث منه في سنوات إجماله التي سنشير اليها فيما بعد .
واقبح بما ذكر كله ما اتهمه به احمد بن ابي طاهر من
التطرف ومجاوزة الحد ، وهو انه نصب نفسه فقيهاً يفتي الخلفاء
في قتل الناس ومصادرة أموالهم ، وذلك حين كان متمكناً
لدى الخلفاء . ومن ذلك قوله للمنتصر وهو يهجو ابن الحُصيب :
يا ناصر الدين انتصر موشكا من كائد الدين ومغتاله
فهو حلال الدم والمال إن نظرت في باطن أحواله
والرأي كل الرأي في قتله بالسيف واستصفاء أمواله
وابن ابي طاهر يعقّب على هذه الفتوى بسبّ البحتري
قائلاً : كان فقيهاً يفتي الخلفاء في قتل الناس ، نوحه الله !
وقد عاد البحتري بمثل فتواه هذه فأفتى المعتز في بُغْيًا
الصغير قائلاً :

جمع الهزيمة والاباق بفرّة مذكورة أخذته في الاقوام
يرجو الامان ولا امان لغادر شق العصا وأحلّ كل حرام

وهناك مظهر آخر لهذا الطبع الحاد في البحتري ، ذلك
انه كان يغضب حين ينشد القصيدة / وفيها ما فيها من المحاسن

✓
التي تعب في الحصول عليها - كان يغضب حين لا تبدو من سامعيه هزة الاستحسان فيقول لهم : ألا تسمعون ! ألا تعجبون ! ... وقد أجمع مؤلفو الأدب على أن ينظروا إلى الشاعر بسبب هذا المظهر نظرة خلقية لا نفسية فاتهموه بالغرور . واي شاعر لم يكن مغروراً وهو خلق الشعراء جميعين ؟

✓
اتهموه بالغرور وكان يجب ان يتسع بهم البحث فينظروا إليه من الناحية النفسية ، وإذن لرأوه رجلاً ملتهب الشعور ، حاد الطبع . وكان شعوره يزداد التهاباً وطبعه يزيد حدة حين ينشد ، اي حين تلتئم القصيدة في نفسه وتتجمع معانيها وتصير كأنها حياً ، فيريد أن ينقل مشاعره إلى غيره من الناس ، والناس قد عودوا الشاعر ان يهتروا له وان يستحسنوا قوله وان يستعيدوا ما برزت محاسنه ، بل تعودوا ان يكملوا للشاعر البيت ويسبقوه إلى لفظ القافية ، وتعودوا ان يعلقوا على المحاسن بالثناء وعلى المقابح بالمقاطعة ، فكان مما يغضب البحثري ان يرى خموداً وهو يفيض ، وان يحسّ جموداً وهو يشور ، فحدثت منه الحركات والاشارات في بعض مواطن الانشاد . وصاحب الموازنة يدعي ان ذلك لم يكن منه الا اذا شرب وأيس وأنشد شعره ، فقال : ألا تسمعون ! ألا تعجبون ، واعتذروا له عما يفعل بمكانه وموضعه العظيم قائلين : لم لا يفعل ذلك وقد اسقط في أيامه أكثر من خمسمائة شاعر وذهب بخيرهم ، وانفرد بأخذ

جوائز الخلفاء والملوك دونهم ؟^١
والباحث المدقق لا يرى على الشاعر عيباً فيما يفعل من
هذا ، ولا ضرورة للاعتذار بمكانة البحري ، لأنه ما من
إنسان يستطيع أن يعبر بلغته فقط عما يريد مهما قويت
دلالته ، وإن أية لغة لا تستطيع الدلالة على جميع صور
العواطف والأفكار دون الاستعانة بحركة الوجه أو الأيدي
أو تكيف الصوت^٢ . هذا في الحركات والإشارات **X** .
أما في طلب الاستحسان فإن البحري كان يغضب حين يتصور
السامعين نياما من الجهل والبلادة فهو يهزهم ليستيقظوا ،
وهو يعبر لنا عن هذا العمل بقوله :
أهز بالشعر أقواماً ذوي وسنٍ في الجهل لو ضربوا بالسيف ما شعروا

ومن وراء هذا الطبع الحاد الذي ظل يلزمه حتى يبس
وشاخ جبر على أن يفارق العراق ويسير مدجلاً إلى بلده ،
وقد كان يعلم أن الحكم في بغداد قد صار للجهاير ، وإن
اتباع أحمد بن حنبل قد تشددوا في الدين وعاقبوا على الشبهة ،
وكانت فيه حيلة ومقدرة على أن يبتعد عما يغضب اتباع هذا
الامام ، ولكن طبعه الحاد وقف سداً أمام الحيلة وامام
التجارب فأزال الرجل عن الصواب في نظر الجمهور مهما قيل

(١) الموازنة ص ٥ .

(٢) مقدمة الحضارات الأولى ص ٤٢ .

انه لم يخطيء^١ ومهما قيل انه ارضى الفن وصدق الحقيقة .
وقد انساق الى طبعه وأنشد ما أملاه عليه ، فوقف ينشد
في رثائه لأبي عيسى بن صاعد هذه الروائع ذات الصيت^٢ :
أخي متى خاصت نفسك فاحتشد

لها ومتى حدثت نفسك فاصدق
أرى علل الاشياء شتى ولا أرى التـ

جمع إلا علة للفرق
أرى الدهر غولاً للنفوس وانما

يقي الله في بعض المواطنين من يقي
فلا تتبع الماضي سؤالك لم مضى وعرج على الباقي فسائله لم بقي
ولم أر كالدنيا حليلة وامق محب متى تحسن بعينه تطلق
تراها عيانا وهي صنعة واحد فتحسبها صنعي حكيم واخرق
ومهما يكن البيت الاخير قد قرر ان الصانع واحد في
شطره الاول فإن شطره الثاني حاول الشك ، او عبر عن
عقيدة وثنية . ولو كان الحكم للعقلاء لما رأوا عليه ذما ،
ولكن الحكم قد صار للجمهور ، وبذرة واحدة من الشر
أو الحسد أو خطأ الفهم تلد في هذه البيئة الخصبة فوق
ما تلده الجرائم .

والبحتري على ذلك شاك وإن لم يشك ، وثنوي وإن
كان موحدا ، وحسبه ذنباً لدى الناس انه يعلم عقيدة الثنوية

(١) من حديث الشعر والنثر ص ١٣٣ .

(٢) الموشح ص ٣٤٣ .



✓
ويصورها هذا التصوير الفني البارع^١. وباتت بغداد تنوي به
شراً ، وبات هو يحاسب طبعه وتجاربه ، فيجد الاول قد
غلب ، وانه لا مخلص منه إلا اليه ، فصمم على الرحيل
واسرع في الطريق ومعه ابنه ابو الغوث في آخر رحلة له
الى الشام .

ولم تكن هذه هي المرة الاولى للبحثري في خوض هذه
الريب ، بل كانت هذه واضحة في أنه بريء ، ولكنه قد
سبق ان اتهموه بالتنقل من مذهب الى مذهب يدور مع
الدول ، ويقولون انه عوتب في قوله في بعض قصائد مدحه :
يرمون خالقهم بأقبح فعلهم ويجرفون كلامه المخلوقا
وهو في هذا يرى ان القرآن مخلوق ، ويقول بقول
القدرية أهل الاعتزال ، فقالوا له : أصرتَ قدرياً معتزلياً ؟
فقال : كان هذا ديني في ايام الوثائق ، ثم نزعته عنه في ايام
المتوكل . فقبل له يا أبا عبادة ، هذا دين سوء يدور مع الدول^(٢)

بعض الاحتمالات

✓
على ان هذا الطبع لم يمنع البحتري ان يحتمل لبعض
اموره ، إلا ان اكثر ما كان احتماله كان ليغذي به ذلك
الطبع المنحرف ويسدّ نهيمته ، فكان يفعل الحيلة من اجل

(١) يعتقد هؤلاء أن (ارمزد) اله الخير وان (اهرمان) اله الشر
وقد خلق أهرمان من تفاعل قوى الطبيعة يوم خلق ارمزد الدنيا .
(٢) الموشح ص ٣٤١

نفسه . وقد رأى في اول انتقاله الى العراق ان يغير لقبه الذي كان مشهوراً به في منبج وباديتها وفي حلب وهو « أبو عبادة » . وذلك انه احس بخشونته على الحضارة التي هو مقدم عليها ، فرأى ان يزيل بتغييره عنجهية البداوة (١) ويتقرب من اهل الحضارة ، ورأى ان يتكنى بابي الحسن أو أبي حسن .

ولسبب آخر أهم من ذلك أراد ان يغير لقبه ، هو ان يتقرب بهذه الكنية الجديدة الى جماعة من الكتاب واهل النباهة من الشيعة ، وكان بالعراق من كبارهم في عصره عدد كبير . ومع انه لم يوفق في هذا التغيير فقد انطلقت عليه الكنيتان ، ولكن « أبو عبادة » صارت اشهر لان الخليفة المتوكل امره ان يبقى على كنيته القديمة واحتج له بانها اسهل لاشتهارها ، وستر المتوكل كراهته للشيعة بحجته هذه التي أبداه .

وقد كنا في شوق ولهفة ، لأن نعلم شيئاً من شعره في باعة البصل والبادنجان بسوق منبج (٢) ذلك الشعر الذي اتهموه بقوله في ايام صباه ثم ضاع . قال صالح بن الاصبع التنوخي المنبجي : رأيت البحثري ها هنا عندنا قبل ان يخرج الى العراق يجتاز بنا في الجامع من هذا الباب - واوما الى جنبتي المسجد - يمدح اصحاب البصل والبادنجان وينشد

(١) الموازنة ص ١١

(٢) طيف الوليد ص ١٣٦

الشعر في ذهابه ومجيئه .

وكان ذلك الشعر يفيدنا من الناحية الفنية التي هي الغرض
الأصيل من كتابنا والتي سنعرض لها عما قريب ، لنعلم منه
سيرة شعره ومعراجه في سلم الرقي ، ولكننا فقدناه ، ولو
كان خبره صحيحاً لكان الأسف له بالغاً ، ولكننا نكتفي
من هذا الخبر بالاستدلال به على انطباعه على الحيلة ليصل بها
الى إرضاء طبعه وسد خلته ولو كان يمدح السوق من الناس .
ويرى بعض العلماء ان انتسابه إلى طيء كان حيلة
أوجبت له عطف كثير من الطائيين في زمانه ، وعطفت
عليه قلب أبي تمام خاصة . ولعل انا تمام كان اكبر ربح في
تحزب البحتري لطبي ، فظلا منذ اجتماعهما وافتراقهما متصافين
على القرب والبعد متحابين متلائمين ، يجمعهما الطلب والنسب
المكتسب (١)

ولم يكن في زمانهما شاعر مشهور يفد على الملوك ويحتدي
بالشعر وهو ينتسب الى طيء سواهما ، وقد اعان كل منهما
صاحبه على ما يرجوه حتى سدا الابواب على الشعراء .
ولا يخفى ان الانتساب الى طيء يمد الشاعر بكثير من
معاني الفخر بالجوود والشجاعة ، ويفوي قلبه على اقتحام هذا
الباب دون مراقبة أو حساب . ومهما ضاعت قيمة آباءه
الأدنين فان صلته العليا بالقبيلة لا تحرمه من مفاخرها

ولم يجد البحتري بدءاً من الوصول الى الخلفاء بالحيطة
 والاحاح على دق بابها ، وكان البذل أقوى واين عند اتصاله
 باول خليفة ، أما بعد هذا الاول وهو المتوكل فقد اصبح
 الأمر هيناً ، لانه كان قد وصل واشتهر ولم يبق لأحد من
 الخلفاء غنى عنه . وفي نفس الطريق التي سلكها ابو تمام للخلفاء
 من بدء الصلة بالكتّاب والعمال والوزراء سار البحتري فاتصل
 بأبي الحسين علي بن المنجّم نديم المتوكل فوصله بالوزير الفتح بن
 خاقان ، ثم وقفت به الصلة عند هذا الوزير زماناً طويلاً ،
 فجعل يرجو الفتح ويعاتبه ، ويلج في الرجاء والعتاب حتى
 أوصله للمتوكل (١) ، وان كان البحتري بلغ بذلك ما تمناه
 فان موقف الفتح منه وموقفه من مدح الفتح وعتابه والاحاح
 عليه في الرجاء قد نهب من معاني البحتري جملة من الشعر
 هي من اروع ما قال . قال يمدحه :

أما اياديك عندي فهي واضحة ما إن تزال يدٌ منها تسوق يدا
 أصبحت اجدي على العافين مبتدئاً منها وما كنت إلا مستبديح جدا
 ومن بيتٍ منك مطويّاً على أمل فلن يلام على إعطاء ما وجدا
 لم لا أمدّ يدي حتى انال بها

مَدَى النجوم إذا ما كنت لي عضدا

وقال وقد اعتلّ الفتح :

ولما اعتلّ أصبحت المعالي محبسةً على خطر مهول
 ألم تر للنوائب كيف تسمو إلى أهل النوافل والفضول

(١) البحتري ص ٦٣

و كيف تروم ذا الشرف المعلى وتخطو صاحب القدر الضئيل
وما تنفك أحداث الليالي تميل على النباهة للخمول
ويقول متوسلاً به إلى المتوكل :

فداؤك أقوام سبقت سرائهم إلى القمة العليا والخلق السمع
وعدت فأوشك نجح وعدك إنه من المجد إعجال المواعيد بالنجح
وانت ترى نصيح الامام فريضة وإخباره عني سبيل من النصيح
له مكرمات يقصر الوصف دونها وأبلغ مدح يستعار له مدحي
فلما اتصل البحري بالخلفاء لم يشأ أن تكون آله عندهم
الشعر وحده ، إذ الشعر له اوقات ومواسم ، فاتخذ المنادمة
حرفة ، وضم بها إلى جاهه الفنيّ جاهاً آخر من الصحبة
والمداومة عليها ، ولا يخفى ما في المنادمة من الخطر ، وهي
لا تكون إلا في اوقات السرور ، او اوقات الهم التي تحتاج
إلى ما يذهبه ومن يذهبه ، وقد اكسبته هذه المنادمة جاهاً
عريضاً يعرفه تاريخ الادب في صلته بالفتح وصلته بالمتوكل ،
وقد سبق لنا أن أشرنا إلى قول احمد بن طاهر وهو أنه
نصب نفسه فقيهاً يفتي الخلفاء في قتل الناس . . وما نظن
البحري قد اجتراً على ذلك إلا من اتكاله على شخصية النديم
لا الشاعر ، وقد بلغ المكانة التي يقول هو فيها :

ولما حضرنا سدة الاذن أخرت رجال عن الباب الذي أنا داخله
ولم تنقطع به حيلته عند باب ممدوح فهو يمدح ابن الزيات
بدقة كتابته وتقننه فيها . وسنعود الى الكلام عن هذا المدح في
موضع آخر . ويمدح ابن الفرات بتجويد الخط ، واغرب

ما فعله دخوله على المعز بحيلة لم يسبقه احد بالدخول بها على ملك بل على أب ، فقد جعله البحتري وسيلة لابنه عبد الله ابن المعتز ، وفعل ذلك أكثر من مرة ، ولكنه لم يفعل الا لثقتة في حب المعتز لابنه حباً يغفر للشاعر خروجه على التقليد . والبحتري نفسه يحس بهذا الخروج ولكنه يلفظ فيه فيبلغ مراده إذ يقول :

يا واحد الخلفاء غير مدافع كرمأ وأحسنهم يدا وصنيعا
انت المطاع فان سئلت رغبة ألفت للراجي نذاك مطيعا
إني أريدك أن تكون ذريعة في حاجتي ووسيلة وشفيعا
ماسالها احد سواي خليفة في الناس مرئياً ولا مسموعا

انتظام الدراسة

ويبدو من اخبار البحتري أنه لم يحتطب في دراسته كما احتطب أبو تمام (١) بل سار في منهج قويم غير مضطرب ، فمن تجريب القول في السوق الى الكتاب فالوزراء ثم الخلفاء ، ومن مسامرة الطبع إلى إضافة التصنيع ثم إلى التعقيد وإحكام الرأي . وكان سيره في الدراسة متبعاً خطواته في الرحلة .
فمن البادية ذات الصمت والصفو ، إلى حلب الجادة اللاهية ، إلى حضارة بغداد ودنيا العراق .

وليس معنى هذا أنه حين قال في الخلفاء أمسك عن ذكر غيرهم ، أو حينما استطاع أن يصنع ويعقد خالف طبعه جملة ،

(١) عبقرية أبي تمام ص ٢٥

✓
وانما من المسلم به أنه حين اتصل بالعلية والكبراء لم تكن
آراؤه ولا مشاعره ولا قدرته على النسيج كما كانت من قبل ،
ولكن فنه ارتقى لا محالة ، وأصبح شعره حتى الذي يقوله
في غير الطبقة العليا حافلاً راقياً ✓

وأول درس يتضح لنا أن البحري قد تلقاه كان يوم
اتصل بأبي تمام في حمص . ولم يكن أول درس على إطلاق
القول ، لان البحري لقي أبا تمام وأداة الشعر قوية عنده ،
بل هي بالغة الى حد إثارة السامعين . وقد أثارت أبا تمام
نفسه قصيدته التي القاها في حضرته ، وحفظها أبو تمام لأول
مرة ثم ادعاها ليكدر على البحري خاطره ، أو ليعاقبه على
تقحمه عليه مواطن الانشاد ، ثم عاد فافهمه انه يداعبه .

واستطاع البحري بهذه الدرجة في الانشاد ان يجد أبا
تمام ، وان يجد فيه ضالة ينشدها ، أو حظاً لم يكن يتوقعه .
ورأى في اثناء مداعبة ابي تمام له ان يتصل به فلا يبطىء ،
فاتصل به بسببين : احدهما انه طائي ، وثانيهما انه تلميذ
يريد نصيحة الاستاذ . وسبب ثالث يقوله بعض الرواة هو
انه فقير يريد العيش او طموح يريد الغنى فتوسط له ابو تمام
لدى اهل المعرفة فأعانوه .

وقد حفظ لنا تاريخ الادب وصية ابي تمام للبحري في
صناعة الشعر حين سأل كيف يصنع الشعر ، ومع ان الوصية
مشهورة الا اننا نسجلها هنا لأهميتها .

(١) زهر الآداب ج ١ ص ١٥١ .

قال الوليد بن عبيد البحرى : كنت في حديثي اروم
 الشعر ، وكنت ارجع فيه الى طبعي ، ولم اكن أقف على
 تسهيل مأخذه ووجوه اقتضائه حتى قصدت ابا تمام وانقطعت
 فيه اليه واتكلت في تعريفه عليه ، فكان أول ما قال لي :
 يا ابا عبادة ، تخير الاوقات وانت قليل الهموم صفر من
 الغوم . واعلم ان العادة جرت في الاوقات ان يقصد
 الانسان لتأليف شيء او حفظه وقت السحر ، وذلك ان
 النفس تكون قد اخذت حظها من الراحة وقسطها من النوم .
 وان اردت التشبيب فاجعل اللفظ رقيقاً والمعنى رشيقاً ،
 وأكثر فيه من بيان الصبابة وتوجع الكتابة وقلق الاشواق
 ولوعة الفراق . فإذا اخذت في مدح سيد ذي اباد فأشهر
 مناقبه واظهر مناسبه وابن معالمة وشرّف مقامه ، ونضد
 المعاني واحذر المجهول منها ، واياك ان تشين شعرك بالألفاظ
 الرديئة ، ولتكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير
 الاجساد . واذا عارضك الضجر فأرح نفسك ، ولا تعمل
 شعرك الا وانت فارغ القلب ، واجعل شهوتك لقول الشعر
 الذريعة الى حسن نظمه ، فان الشهوة نعم المعين . وجملة
 الحال ان تعتبر شعرك بما سلف من شعر الماضين ، فما
 استحسن العلماء فاقصده ، وما تركوه فاجتنبه ترشد ان شاء الله
 قال البحرى : فأعملت نفسي فيما قال فوقفت على السياسة .
 وفي هذه النصيحة ما يهيم الدارسين ، فقد كانت استجابة
 لما طلبه البحرى . وصاحب العمدة يروي ايضاً ان ابا عبادة

قال : كنت في حديثي أروم الشعر ... ١ بمثل ما روى
زهر الآداب ، وأهم ما فيها بعد ذلك ان ابا تمام حرّض
البحتري على العناية بالمجانسة بين اللفظ والمعنى ، ثم باظهار
المعنى وتنزيده ، والمباعدة عن الالفاظ الرديئة ، ثم اتباع
عمود الشعر ، وهو ما عبر عنه ابو تمام بقوله : وجملة الحال
ان تعتبر شعرك بمن سلف من شعر الماضين فما استحسن العلماء
فاقصده وما تركوه فاجتنبه . أما ما عدا ذلك كاختيار
وقت للانشاد وتقسيط الزمن بين الراحة والقول فذلك أمر
لا يهم البحتري لانه رجل طبع وسليقة يقول حين يشور
طبعه ويحبيل حين يخمد . وهو ايضاً لا يهم ابا تمام لانه
يشق على نفسه في الصناعة حتى يرى الاحتقان في عينيه .
وقد اخذ البحتري بمشورة استاذه وقال : فأعملت نفسي فيما
قال فوقفت على السياسة .

وقد يعترضنا هنا سائل يقول : ولماذا تتلمذ البحتري على
ابي تمام وقد استوت له أداة الشعر ، وكان يغنيه ان يقرأ
شعر الأوائل والقدماء ، بل لعله قرأه من قبل وأحس بطبعه
الميل اليهم دون طريقة ابي تمام ؟ واجابتنا على هذا السؤال
فيها حجة ومقنع ، فان البحتري كان رجلاً يعرف وجه
الحيلة ويقدر الخطوة لقدمه . كان يعرف نفسه ويعرف انه
شاعر مولد فلا غنى له عن تصفح اشعار المولدين لما فيها من
التأثر بمعاني الحضارة الجديدة ، فاذا جمع الى فصاحة المتقدمين

صنعة المتأخرين اشتد ساعده وبعد مرماه فلم يقع دون الغرض .
وهذا أبو تمام مدرسة المحدثين بتمامها ، مادة وروحاً واعتدالاً
وانحرافاً ، فرآه البحتري ضالته - كما قلنا - وعثر فيه بحظه
فسمع الى نصحه وعمل به .

ولم يكتف البحتري بسماع النصيحة بل لزم معلمه يسأله
وهو يجيبه ، ويسمع إنشاده ويذهب في تقليده عند حدود
طبعه وقدرته . ويروي في بعض دروسه العملية التطبيقية
أن أبا تمام انشد البحتري لنفسه في صفة فرس ، واستطرد
يهجو خالد بن أدريس السامي (١) فتبعه البحتري يقلده قائلاً
يهجو ابن الهيثم :

يا قبر يحيى لاعدمت تحية من كل ذات ترنم وتبسم
فيم المرام لرأي صاحب همة قتلت بها نوب القضاء المبرم
أو ما علمت بأن من رام العلا بالسيف في حمس الوغى لم يسلم
ما زال يعتل بالأسنة والظبا حتى انثنى وادبمه كالغندم
ولقد رأيت البيض تأخذ درعه فذكرت عرض محمد بن الهيثم
فبينما هو يصف ويمدح اذا هو ينتقل فجأة الى ذم محمد بن
الهيثم . وقد قلد البحتري استاذة هنا فأجاد ، وربما كان
أجود منه في الانتقال لما أراد الاستطراد . وهناك محاولة
أخرى له بمعجم الادباء ، فإليه (٢) .

ومن الغريب أن تكون نصيحة أبي تمام لتلميذه في هذا

(١) عبقرية أبي تمام ص ١١٠ العمدة ج ٢ ص ٣٢ الديوان ص ٦٧٢

(٢) معجم الادباء ج ١٩ ص ٢٥٠

قال : كنت في حديثي أروم الشعر ... ١ بمثل ما روى
زهر الآداب ، وأهم ما فيها بعد ذلك ان ابا تمام حرض
البحتري على العناية بالمجانسة بين اللفظ والمعنى ، ثم باظهار
المعنى وتنظيمه ، والمباعدة عن الالفاظ الرديئة ، ثم اتباع
عمود الشعر ، وهو ما عبر عنه ابو تمام بقوله : وجملة الحال
ان تعتبر شعرك بمن سلف من شعر الماضين فما استحسن العلماء
فاقصده وما تركوه فاجتنبه . أما ما عدا ذلك كاختيار
وقت للانشاد وتقسيط الزمن بين الراحة والقول فذلك أمر
لا يهم البحتري لانه رجل طبع وسليقة يقول حين يشور
طبعه ويجهل حين يخمد . وهو ايضاً لا يهم ابا تمام لانه
يشق على نفسه في الصناعة حتى يرى الاحتقان في عينيه .
وقد اخذ البحتري بمشورة استاذه وقال : فأعملت نفسي فيما
قال فوقفت على السياسة ١ .

وقد يعترضنا هنا سائل يقول : ولماذا تتلمذ البحتري على
ابي تمام وقد استوت له أداة الشعر ، وكان يغنيه ان يقرأ
شعر الأوائل والقدماء ، بل لعله قرأه من قبل وأحس بطبعه
الميل اليهم دون طريقة ابي تمام ؟ واجابتنا على هذا السؤال
فيها حجة ومقنع ، فان البحتري كان رجلاً يعرف وجه
الحيلة ويقدر الخطوة لقدمه . كان يعرف نفسه ويعرف انه
شاعر مولد فلا غنى له عن تصفح اشعار المولدين لما فيها من
التأثر بمعاني الحضارة الجديدة ، فاذا جمع الى فصاحة المتقدمين

ولم يتجانبف البحتري عن طلب العلم بالشعر من مظانه
- والشعر خاصة دون العلوم الاخرى - وجعل يجد في السير
حتى يجد . وقد حكوا عنه لقاء بعض اعلامه غير ابي تمام لقاء
الدارس المستعلم كعلي بن الجهم وابن الرومي ، ولقاء بعض
المشتغلين به كالبرد وثعلب وغيرهما من ادياء العمال وافاضل
الكتاب . وحكوا انه فاوض ابن الجهم في الشعر (١) حتى اذا
جاء معاً على ذكر اشجع السلمي الشاعر نقده ابن الجهم بقوله
« انه كان يخلي » فلم يفهم البحتري ماذا اراد ابن الجهم بكلمة
« يخلي » ولكنه تظاهر بالمعرفة وأنف ان يسأله عنها ، فلما تفرقا
وخلا البحتري الى نفسه جعل يفكر فيها ويستعرض شعر
اشجع فاذا هو يعثر على المعنى . فقد رأى ان كثيراً من
ابيات ذلك الشاعر تمرّ مغسولة ليس فيها بيت رائع ، فعلم
حين ذلك معنى كلمة « يخلي » وقد علمها كما رأيت بالمراجعة
وطول الدراسة والاتكاء على النفس وهي حال دارس يريد
النجاح .

وقالوا ايضاً انه قد انتهى ان يرى ابن الرومي ٢ ثم
اجتمع به وتدارسا ، فقال البحتري : عزمت على ان اعمل
قصيدة على وزن قصيدتك الطائية في الهجاء ، فنهاه ابن الرومي
لان الهجاء ليس من عمله . ولكن البحتري رجاه ان
يتعاون معه ، فتعاونوا ، فعمل البحتري ثلاثة ابيات وعمل

(١) العمدة ص ١٣٧ ج ١

(٢) الموشح ص ٨٣٨ .

الشوب التقليدي ، وأبو تمام نفسه لا يؤمن بالتقليد ولا يعمل به . ولو أشير عليه بما أشار لرفض ، لأنه لا وقت للشعر عنده ، وبديته تعينه على القول وتحسنه كلما ضاقت به حلقة الكرب ، ولا يجانس بين اللفظ والمعنى ويشين شعره بكل غريب رديء ، وهو فوق ذلك كله يعتبر القياس بما سلف من شعر الاولين خرافة الجمود ، ولم يسمع لكلام العلماء في شعره !

ولكنك من وراء هذه الغرابة في النصيحة تدرك ذكاء أبي تمام وموضع البحتري . فان الاستاذ قدر التلميذ قدره فاخلص له النصيح بما يوافقه ، وجازت النصيحة على البحتري فعمل بها فوقف على سياسة الشعر كما قال ~~على~~ ان البحتري كان أيضاً على ذكاء ، وكان ابو تمام مجاوزاً قدر البحتري ، فحين لزمه لم يلزمه دون فهم وحذر . وقد كان يسمع ملامة الناس له على الافراط في البديع والغريب ، وعلى الاحتطاب في الانتاج فيقع منه المتباين ، وعلى اخفائه المعاني وراء المعاذلات والاشارات ، فتورّع البحتري من تلقاء نفسه عن أن يخوض مخاض أبي تمام . وفي ظني أنه لو اراد اتباع أستاذه لما استطاع ، لأنه لم يكن له محفوظه من الشعر والالفاظ ، ولم يكن له قلبه الجريء على إفساد الصنعة أو السخرية بعمود الشعر - كما يقولون - فلو تم للبحتري الحفظ واعجبته الصناعة لمنعه خوفه وطبعه من الاقدام .

بنفسه ويتبع الشعراء ، واما الذي هو أرقى منه فله شعر
ولكنه ينتحل ما هو اجود من طبقته ، واما الثالث المدعي
فانه لا يحسن شيئاً جملة ، وهذه - في نظره - طبقة
السراق ١ .

هذا رأيه في الشعراء ، اما رأيه في الشعر فقد ابداه لاحد
احفاد ابن طاهر في قوله :
كفتمونا حدود منطقكم والشعر يكفي عن صدقه كذبه
ولم يكن ذو القروح يلهج بالمنة طق ما نوعه وما سببه
والشعر لم يحس تكفي اشارته وليس بالهذر طولت خطبه
وقد ذهب الناس وراء هذه الابيات مذاهب ٢ فقالوا ان
البحثوي مصيب لانه لم يسر على المنطق في شعره ، فدافع
عن نفسه بان الشعر غير خاضع للمنطق وانه يسير في ذلك
سير الاولين ، وما كان امرؤ القيس من المنطقيين
ولكن الجرجاني شيخ الصناعة يوضح هذا الرأي فيقول
« اراد كفتمونا ان تجري مقاييس الشعر على حدود
المنطق وتأخذ نفوسنا فيه بالقول المحقق حتى لا ندعي
الا ما يقوم عليه من العقل برهان يقطع به ويلجىء الى
موجبه ، مع ان الشعر يكفي فيه التخيل والذهاب
بالنفس الى ما ترتاح اليه من التعليل ، ولا شك انه الى

(١) العمدة ج ٢ ص ٢١٨

(٢) الادب التوجيهي ص ١١٤

ابن الرومي ثمانية ، فلم يلحقه في الهجاء . ونحن نتخذ من
هذه القصة شاهداً على انه كان يحاول ان يقلد الشعراء ويحاول
ان يقول مثل قولهم في روي الحروف الصعبة ، ويتعلم منهم
كيف ينشئون لعله يدري السر ويتبع الاثر .
وهذا رأي نخالف به رأي المرزوقي او نكمل له ، فقد قال
في مقدمته لشرح حماسة ابي تمام ١ : ان الشعر الجيد يقوله
من لا يعرف نقده ، وعلى ذلك كان البحتري لانه فيما حكى
عنه كان لا يعجب من الشعر الا بما يوافق طبعه : معناه
ولفظه . وهذه حكايته مع ابن الرومي تثبت ان البحتري
كان يذهب وراء ما لا يجيده ولا يوافق طبعه ليتعلمه .

وهكذا ظل البحتري يدرس شعر القدامى والمحدثين حتى
استطاع ان يبدي رأيه فيهم ، وكان يرى اجمالاً ان
الاولى حجة اما المحدثون فأحسن تعريفاً ٢ ، وهو لم يَرَ
ذلك الا بعد دراسته والثقة فيه ، ثم فصل بعض آرائه في
الشعراء ففضل هجاء الفرزدق على هجاء جرير لتنويعه فيه
وتكرار جرير ٣ . وقال في ابي تمام انه يغوص على المعاني .
ونظر في شعراء السرقه فقسّمهم في رأيه ثلاثاً اقسام :
مفحم وأرقى منه وصاحب ادعاء ، اما المفحم فهو من
عجز عن الكلام فضلاً عن التحلي بجملة الشعر غير انه يخاطر

(١) مقدمة المرزوقي ص ٩٥ .

(٢) ديوان المعاني ج ١ ص ٦٠

(٣) مقالات مكانة الفرزدق للمؤلف .

وفي شعر البحتري ما يدل على انه كان لا يعني بمسائل العلم الا بما اتصل منها بالادب في قوة ، من تاريخ عام او خاص ، او ذيل من دقائق علم الحيوان ، او اشارة لمسألة عددية او حسابية . وما عدا ذلك فلا اثر له في ديوانه ، واطن هذه المعلومات كان يتلقفها البحتري من الشائع على افواه الناس . واما مسائل الاخلاق والدين والفقه فهي في شعره كثيرة لشدة الاتصال بينها وبين افكار الادب . وشعره يمثل اكثر ما يمثل بما اشتهر من اخبار التاريخ ، ولكننا نضرب هذا المثال لطرافته قال :

ولا بسنان بن المشلل عندما بنى هرميها من حجارة لابيها
فهو يعلم من اخبار بناية الاهرام ان بعض حجارنها من
الصوان من جنوبي مصر عند بلاد النوبة وهذا صحيح ، ويعلم
أن بانيها سنان بن المشلل وهذا خطأ ، ولكنه كان الصواب
الشائع في زمانه عن بناة الاهرام ، ودام هذا الخطأ حتى
حملة نابليون (١)

ومن علمه بمسائل الحيوان قوله :
متيقظاً كالافعوان نفى الكرى عن ناظريه فما يذوق هجوعا
وقوله في حمى الاسد :
وما الكلب محموماً وان طال عمره إلا إنما الحمى على الاسد الورد
ويقول ابو هلال إن هذا معنى مولد وشيء تدعيه العامة
(١) مادة هرم بالقاموس المحيط .

هذا النحوقصد واياه عمد ، اذ يبعد ان يريد بالكذب اعطاء
 الممدوح حظاً من الفضل والسؤدد ليس له ، ويبلغه
 بالصفة حظاً من التعظيم يجاوز به من الاكثار محله لان هذا
 الكذب لا يبين بالحجج المنطقية والقوانين العقلية ، وانما
 يكذب فيه القائل بالرجوع الى حال المذكور واختباره فيما
 وصف به ، والكشف عن قدره او خسته ورفعته او وضعته
 ومعرفة محله ومرتبته ، وكذلك قول من قال خير الشعر
 اكذبه . فهذا مراده ... » .

وللبحتري رأي في النثر قاله وهو يصف نثر ابن الزيات

في قوله :

لتفننت في الكتابة حتى عطل الناس فن عبد الحميد
 في نظام من البلاغة ما شك امرؤ انه نظام فريد
 وبديع كأنه الزهر الضا حك في رونق الربيع الجديد
 مشرق في جوانب السمع ما يخ لقيه عوده على المستعيد
 حجج تحرس الألد بالفا ظ فرادى كالجوهر المعداد
 ومعان لو فصلتها القوافي هجنت شعر جرول وليبد
 حزن مستعمل الكلام اختياراً وتجنبن ظلمة التعقيد
 وركبن اللفظ القريب فادر كن به غاية المراد البعيد
 وصاحب العمدة يستنبط من بيت البحتري الذي يقول
 ومعان لو فصلتها ... ان البحتري يشهد بفضل الشعر على
 النثر ...

(١) العمدة ج ١ ص ١٦٤

✓
اعظم من تلك التغطية على من سواهم ، فقد اثر هذا التلاحق
في دراسة الادباء لاشعارهم حتى لم يعد باستطاعة ناقد او اديب
أن يفرد واحداً من هؤلاء بالدراسة دون ان يشير إلى
الآخرين ، وكأن كل واحد من هؤلاء الاربعة يكمل الاربعة .

ويرى كل دارس ان الطائيين اشد مداركة وتلاحقاً ،
وكان ابن المعتز وابن الرومي كذلك ، على ما بين كل اثنين
من قرب وبعد ومن اتفاق واختلاف ، إلا اننا لو استطعنا
الفصل بين ابن المعتز وابن الرومي فاننا لا نستطيع قط ان نفصل
في الدراسة بين الطائيين ، فما السبب ؟

السبب أن البحتري لصق بأبي تمام موافقة ومخالفة فقرب
منه حيناً وابتعد حيناً ولكن القرب والبعد مقيسان بأبي
تمام لانه متأثر خطاه منفعلاً به ، ومن هنا تتبع الناس الرجلين
جزءاً جزءاً في الموازنات ليوفقوا بينهما او يقربوا ، ولما كان
ذلك التتبع المستقصي ليس من شأن كتابنا فاننا ندعه لتلك
الكتب ونبحث عن الخطوط الكبرى التي ظهر فيها اثر
التقليد واضحاً ، ولان في تتبع المعاني الجزئية تعسفاً واحتمالاً .

وقبل أن نأخذ في بيان هذه الخطوط نبداً من العيب
على البحتري في تقليده استاذه ، فان الحبيب مجداً لا يطال
وقد جعله البحتري استاذه باعترافه واقراره ، يتوسم خطاه
ويقتدي به ويتمدح ويقول إنه لم يأكل الخبز إلا به (١) .

(١) معجم الادباء ج ١٩ ص ٢٤٩

وما كان في مقدور البحتري غير تقليده فقد فتن البحتري
بشخصية الرجل وراعيته بديته وارتجاله وحفظه وذاؤه عند
اول لحظة رآه ، فليست المسألة إذن مسألة وفاء لابي تمام
وإنما هو خضوع بالقهر له ، وفي يد ابي تمام منجم من المعاني
يكفي كل صانع أن يأخذ منه ليفتن الناس متى خلص ذهبه
من التراب .

X وكان البحتري (١) بين الطبع والرأي يميل إلى القديم
والمحدث ، وعليه ان يصنع ما يلائم الحضارة التي رآها في
العراق بل عليه ان يقلد شذوذها ما دامت قد قبلت
هذا الشذوذ وقد رأى إقبال الناس على شعر ابي تمام
يدرسونه ويحفظونه ويشيدون به برغم ما تحزب ضده المحافظون
فلم يكن بد من ان يقسر طبعه على الخوض فيما خاض فيه ،
وقد فعل ، فأوفد على شعره غزراً غزيراً من البديع ولكنه
نقاه وصفاه ، وعدداً ضخماً من غريب الألفاظ ، ولكنه
جعله في قصائده تفاريق ، وخالف قياس الاشتقاق ولكن
حين يأمن عدم اللبس ، وخاض اغراضاً لم يعرفها القدماء
ولكن على طريقتهم ، ثم رق بشعره الى درجة التنويع ،
ولكنه لزم عمود الشعر فبانت صناعته وكأنها طبع لم يحفل
بالصناعة .

وفي وسط هذه السكة قلد استاذه في الأغراض التي
أنشأها أو وسع القول فيها ، ولكنك ما تكاد تراه يتبع

(١) انظر قول الثعالي في طبع البحتري : ثمار القلوب ص ١٧٩

اثره في حذر حتى يلتوي في بعض الامر على نفسه وينفرد
دونه ليرجع الى شخصيته ويشبع نهمة طبعه ، وهو شيء
يكاد يكون مضحكاً . وسنرى امثله بعد قليل من السطور .
ومن حيث اخلص ابو تمام لفنه الشعري فقال فيه اروع
جملة لتعظيمه (١) فقد اخلص البحتري كذلك لفنه الشعري ،
وفضله على النثر ، كما رأيت من قبل في استنباط ابن رشيق
وقال فيه جملة اخرى لاجلاله . ومن ذلك قوله يساري بين
الشعر والمال :

ليواصلنك ركب شعر سائر يرويه فيك لحسنه الاعداء
حتى يتم لك الثناء مخلداً ابداً كما تمت لك النعماء
فتظل تحسدك الملوك الصيدي وتظل تحسدي بك الشعراء
وقوله مفضلاً الشعر على المال :

لأشكرنك ان الشكر نائله أبقى على حاله من نائل النشب
بكل شاهدة للقوم غائبة عنهم جميعاً ولم تشهد ولم تغب
مرصوفة بالآلي من نوادرها مسبوكة اللفظ والمعنى من الذهب
ويستكثر الشعر على اهل النوال فيستورده قائلًا :

فردوا القوافي السائرات بمدحكم وما اكسبتكم من ثناء ومن حمد
ويقول في الشعر وهو علة النوال :

هذي نوافلك التي خولتها رجعت غرائبها اليك قصائدا
تعطيك شهرتها النجوم طوالها وتريك انفسها الجبال خوالدا
متعسفات ما تزال روايتها تأبى عليها ان تسير قواصدا

(١) عبقرية ابي تمام ص ٣٠

وهي القوافي ما تقر ثوابنا لممدح حتى تسير شواردا
علل لأتواء الذخائر كلما جلّيت على ملك أباح التالدا
والبحر لولا ان تسير سفنه بالريح ما برحت عليه رواكدا
وبينا ترى البحري هكذا يمضي مضيّ ابي تمام اذا بك تراه قد
غضب وعاد عليه الطبع بالغلبة فخالف الطريقة ونقض غزل
التقليد ، فهجا الشعر وأزرى بالشعراء وذلك في مثل قوله :

وصدّت ربيعة عن شاعر يسمي ربيعة أخواله
فلا بورك الشعر من صنعة ومن قيل فيه ومن قاله
وهذا الوصف للشعر وعمله في النفوس وإدلال الشعراء به
لم يكن من عمل المولدين فحسب ، ولكن الاوائل سبقوهم
الى القول فيه . قال فيه كعب بن زهير وعدي بن الرقاع وابن
ميادة والفرزدق ثم قال فيه بشار وابو حية النميري وابو تمام ،
ولكن المولدين أسهبوا في الوصف واطالوا ، وانفرد ابو تمام
عن الشعراء بأن كان اكثرهم في هذا الباب قولاً واوسعهم
بحراً وقد قلده البحري ^١ .

وكان التفّ ابو تمام في شعره التفاتات بارعة الى فتنة
التمجيم في زمانه وحاربها في قصائده ^٢ فتبعه البحري يسفه
الفتنة ويزري بالمنجمين ، ومنه قوله يهجو رجلاً يشتغل بالنجوم
والزيج اسمه ابن ابي قماش :

من ابن اغفلت ذا وأنت على الت قويم والزيج جد معتكف

(١) دلائل الاعجاز ص ٣٩١

(٢) عبقرية ابي تمام ص ٩٩

رذلت في هذه الصناعة أم
يا ضيعة العلم كيف يرزقه
أكدت أم رمتها مع الخرف
ويقول متهمكما :

كيف تقضي لي الليالي قضاء
وعجيب ان الغيوث يرجع
يشبه الحق والليالي خصومي
من لا يرى مكان الغيوم
منع الدهر ان يسوي في القس
أجتم مقدر أم بحق
ومرام المعروف صعب اذا لم
ويقول متهمكاً مشيراً الى مسألة من مسائل التنجيم في
زمانه :

قل لنا والنجوم منك ببال
وقفت للرجوع في الثالث الزه
لم أخلّت بطالعيك السعود
وبينما تراه هكذا مغبراً وراء فرس أبي تمام اذا بك
تراه قد حرن فمال الى ما يقولونه في تفسير الاحلام ، فيفسر
الحريق الذي أصاب دار المعتز تفسير المؤمنين بها ، وذلك
حيث يقول :

عند الخليفة مما فاته عوض
تضاءل الناس واشتدت ظنونهم
بالمال مال وبالبنيان بنيان
وأيقنوا ان تنوير الحريق هو الدنيا
ثم آمن ابو تمام بالمجد المكسوب اكثر من ايمانه بالمجد
الموروث وجعل يدعو اليه ١ فتبعه الباحثري ، ولكنه اتبعه

(١) عبقرية ابي تمام ص ١٠٠

✓
على قلق واضطراب فقال وهو يكاد يساوي بين المجدين :
لها الحسب الزاكي الذي تعرفونه وفيها طريقات العلا وتليدها
فلا تسألوها عن قديم تراثها فمسيجدها بما أفاد حديدتها
* ثم وصف الربيع والغيث والحرب والمصلوب^١ والحريق
كما فعل أبو تمام . ثم انه تبعه فاختار من شعر القدماء
وبعض المحدثين ما سماه بالحماسة كما سمي أبو تمام بعض ما
اختاره ، ولكنه رجع ايضاً الى طبعه الصافي فجعل كتابه
فصولاً صغرى للأغراض الصغرى حتى لا يختلط غرض بغرض ،
فعددها يحد ويكثر كلما جاء على الشعر جديد . اما أبو
تمام فجعله ابواباً كبرى مفتوحة تقبل في جوفها كل وافد
جديد .

✗ هذا ، وقد سبق لنا ان تحدثنا عن تقليده له في
الاستطراد وتقليده لابن الرومي في الهجاء . اما خروجه عن
القياس ، وإكثاره من الغريب فسنعود الى الكلام عنه عند
الكلام على لفظه المفرد في الفصل الثاني .

✓ الاجماع عليه

✓ واجمع الناس في عصره وبعد عصره عليه ، الأمراء
والعلماء والعمال واهل الطبقة الوسطى والسوقية . ويقول
ياقوت إن بعض اهل عصره قدموه على أبي تمام بادىء الرأي

(١) الديوان ص ٧٤٧

وختيموا الشعراء به ١ .

وانما اجمعوا عليه لأن اكثر كلامه قد قرب منهم وفهموه ،
وقد عني البحتري بمعاني المجتمع فأخذ منها ، ولم ينس ان
يستعمل ما اصبغ منها إراثاً شائعاً للناس ، واتخذ من
القرآن والحديث ومسائل الفقه الميسورة الفهم ومن الحكم
والأمثال والتاريخ المعروف بالمشهرة جمهوراً زاخراً من
معانيه . وقد فهم القوم ما أراد وعرفوا غرضه بها ، وقد
احتال هو ايضاً على الصعب فليسن كثيراً منه وقربه للناس
سهلاً شهيماً .

فهموا ما أراد البحتري وعرفوا غرضه ولكنهم لم ينظروا
في كلامه النظرة الفنية التي نظر اليها المتأخرون . وذلك
لان علم البلاغة لم يكن قد وضع بعد ولم تكن مسائله قد
رسخت ، ولم يكن النقد قد صار علماً كما هو اليوم . وكان
من حسن حظ البحتري ان التقى عليه اجماع الدارسين
 واجماع المعجبين بعد نمو علم البلاغة وعلم النقد

وقد ظلت الاجمال تردد كثيراً من مشهور البحتري ،
فلما بلغ عصرنا كان البحتري بهذا المشهور وحده دون سواه
سهلاً قريباً وكأنها بديهية ادبية ، وظن الناس او ما يزال
كثير منهم يظن ان شعره غير محتاج للدراسة ، وهذه هي
الغلطة في معرفة البحتري ولم يجنحها احد سواه .

فمن حيث شهدت كل الطبقات في عصره بسهولته كان

(١) معجم الادباء ج ١٩ ص ٢٤٨

شعره مع الأدباء والعلماء يجري في غير هذه الطبقة ، بل ان له شعراً على جانب من الصعوبة يحتاج الى الصبر الطويل ليفهم ككتابه بالشعر يرد على ابن طاهر ١ ، ولكنه مهما صعب يبدو سهلاً واضحاً اذا قرن بشعر ابي تمام . ولعل بعض الناقدين تجاوز عن هذا الجانب الصعب فيه فعده من حسناته لانه يلذ للدارسين .

وَفَرَط من نقاد الازمنة المختلفة اعجاب بالبحثري ، فأبو العباس المبرد الذي وقف دهرًا طويلاً يعادي شعر ابي تمام (٢) حتى حشه عليه ابن المعتز كان يستجيد شعر البحتري ويكثر من إنشاده ويقول : ما رأيت اشعر من هذا الرجل ! ولم يمنع المبرد ان يدون شعره في كتبه وأماله الا انه كان يعيش في زمانه ويلقاه وينشده من شعره ، وكتب المبرد وأماله كانت تختص القديم الغائب لتزود ثقافة العصر بما ليس فيه ، وكان المبرد يعتذر عن ذلك قائلاً : لولا انه ينشدني الذي انشدكم ملأت كتبي من أمالي شعره ! (٣)

وكان أبو العباس ثعلب ينشد شعره ايضاً ، وقد انشد الصولي وصفه لقلم الحسن بن سهل :
واذا دجت اقلامه ثم انتحت برقت مصابيح الدجا في كتبه
فاستعاده الصولي حتى فهمه ثم جعل يقول : لو سمع

(١) الديوان ص ٢٠٥

(٢) عبدالله بن المعتز

(٣) الموازنة ص ٩

✓
الاولئل هذا الشعر ما فضلوا عليه شعراً (١)
وصاحب الموازنة - وكتابه في تفضيله - يقول : ان الاجماع
قد وقع على استحسان شعره واستجادته ، ويدعي ان شعره
قد رواه واستحسنه سائر الرواة على طبقاتهم واختلاف
مذاهبهم ، ويدعي ايضاً ان اصحاب ابي تمام الذين فضلوا
طريقته لم يدفعوا البحتري عما امتاز به عن صاحبهم (٢) من
حلاوة اللفظ وجودة الوصف وحسن الديباجة وكثرة الماء ، ثم
من قرب مأخذه وسلامة طريقته عن ابي تمام .

والقاضي الجرجاني صاحب الوساطة (٣) يقول : ومتى
اردت ان تعرف ما بين المصنوع والمطبوع ، وفصل ما
بين السمع المنقاد والعصي المستكره فاعمد الى شعر البحتري ..
ثم عرض القاضي امثلة مختلفة له من النسيب والملح واطنب
في الثناء عليها .

وصاحب العمدة يقول (٤) واما البحتري فكان املح
صنعة واحسن مذهباً في الكلام ، يسلك منه دماثة وسهولة
مع احكام الصنعة وقرب المأخذ ، لا يظهر عليه كلفة
ولا مشقة .

وقال الشريف الرضي : اما ابو تمام فخطيب منبر ، واما

(١) العمدة ج ٢ ص ٢٠٦

(٢) الموازنة ص ١٨١

(٣) الوساطة ص ١٩

(٤) العمدة ج ١ ص ٨٥

✓
البحثري فواصف جوذر ، واما المتنبي فقائد عسكر . وقال
ابو العلاء قولته المشهورة : ابوقمام والمتنبي حكيان والشاعر
البحثري . وسنعود الى الكلام عما يريده ابو العلاء بكلمته
هذه في آخر الكتاب .

وادباء عصرنا ونقادهم يتبعون آثار القدماء فيتمدحون
البحثري . وحيثما وجدت فيه مؤلفاً او بحثاً وجدت الثناء ،
وفي حديث الشعر والنثر والبحتري وطيف الوليد ١ وفي
مذكرات طلاب المدارس ما يغنينا عن الافاضة في آراء اهل
عصرنا . غير اننا لن نأخذ انفسنا بالكلام الجميل ولا الثناء
الغابر ، وانما نعرض صناعة البحثري على محك الفن وميزان
الدقة لنتبين حقيقة قدره وسر جماله الذي جمع عليه القلوب .

(٢) هذه الكتب مشار اليها في ثبت المراجع .

الباب الثاني

مسالك طريقته

اللفظ المفرد - اللفظ مع اللفظ - التجانس
تنضيد المعاني - معراج الرقي - بناء القصيدة

المفرد المفرد

قال صاحب الخصائص : فاذا رأيت العرب قد اصلحوا
الفاظهم وحسنوها وحموا حواشيها وهذبوها وصقلوا عذوبتها
وأرهفوها فلا تُرَيْنَ ان العناية اذ ذاك انما هي بالالفاظ بل
هي عندنا خدمة منهم للمعاني وتنويه بها وتشريف لها .

ولم يعجب الرافعي هذا القول ، فرأى ان ابن جني لم
يصل الى معرفة الحقائق ، حيث جعل رقي اللفظ راجعاً الى
خدمة المعنى . ويرى الرافعي ان من علامات تمدن العرب
اللغوي بناء لغتهم على اسباب لسانية من عذوبة المنطق
ومراعاة النسب اللفظي بين الحروف ، بحيث لا تجدد في
كلمة عربية حرفين لا يأتلفان كالعين مع الحاء او القاف

مع الكاف ... ويرى الرافعي ان في العرب فطرة تميل بهم عما يصيب كلامهم بالجفاء الى ما يلين حواشيه ويجعله رشيقاً رقيقاً . وهذه العناية منهم بتأليف الكلمات من حروف متناسبة كانت السبب الطبيعي لعنايتهم بتأليف الجمل واحكام الكلام ثم توخيهم روعة الاسلوب وفخامة التركيب . ويرى الرافعي ان ذلك امر 'خص به العرب دون سائر الامم ، ويقول : وقد غفل بعض العلماء عن هذا السبب الطبيعي ، فذهب الى ان العرب انما تعنى بالالفاظ لانها تغفل المعاني ' . وهذا الرأي يبدو حقيقاً ، بل يعتبر قولاً حاسماً في موضوع اللفظ العربي . فالعناية به انما هي دلالة على تمدن العرب اللغوي . والشاعر او الاديب الذي يعنى به انما يعمل على قانون هذا التمدن والمحافظة عليه ، والبحث في عمليته في اختيار اللفظ والاهتمام به في بناء الجملة قد عمل من جانبه حفاظاً على الميراث ، بل اضاف الى عملية التنقية والتصفية مفخرة جديدة . وقد استطاع ذلك لطبعة الصافي ، اذ في طبع العربي مقدرة على معرفة لفظه والنطق به ، واذا اخطأ فقد يكون ذلك في المعنى ، اما في اللفظ فلا . وابن هشام في « المغني » يؤيد هذه النظرية بقوله : « وانما العرب محميون من الخطأ في الألفاظ دون المعاني » . وتحت هذه النظرية كان نقد القدماء اكثر ما ينصب على الألفاظ ، وكان جلّ نقد ابي العلاء في عبث الوليد منصّباً على الالفاظ من حيث

التوسع في الدلالة على المعاني الكثيرة والاشتقاق ، ومخالفة
القياس^١ .

والحق انه لا يوجد كيان مستقل للفظ المفرد ولا سيما
في العبارة الادبية ، وانما تظهر قيمته في التركيب ، ولكنه
على كل حال يجب ان يستوفي شروطاً وضع لها البلاغيون
أصولاً عاونت على وضعها الحضارة الراقية التي كانت تنتظم
العراق . وكان البحتري بطبعه وتحضره ذا احساس قوي ،
وإدراك نابغ لما يجب ان يكون في اللفظ المفرد .

كان يختار ان يكون اللفظ عربياً خالصاً ولا سيما اذا
كان من ألفاظ الاشتقاق . أما اذا كان علماً أعجمياً لشخص
او مكان فلا يمنعه ذلك من استعماله لانه لن يغير من جوهر
اللغة . وابو تمام خالف هذا الرأي فاشتق من الاعجمية
أفعالاً^(٢) ، أما البحتري فلم يتجاوز الحد ولم يخلط النغم .

واختار البحتري لفظه العربي الخالص قريباً مألوفاً ، وكان
ذلك انتصاحاً بفساد طريقة ابي تمام ، وتأثراً بفعل الحضارة . فانها
حيث تدعو الى تعقيد المعاني واختفائها تعمل على تقريب اللفظ
وتسهيله^(٣) وقد فتن البحتري بالحضارة وودّ منذ اول الامر
أن يغير كنيته ، ثم غرق في شبهتها ونفاقها . وقد عمل

(١) عبث الوليد

(٢) عبقرية ابي تمام ص ٥٧ - همزيات ابي تمام

(٣) عبقرية أبي تمام ص ٦٣

ايضاً على تقريب الالفاظ لانه كان ينشد الخلفاء والوزراء
والموالي ، وكثير منهم لا يعرف الحوشي الغريب ، واذا
عرفه فهو لا يلتزم مع البيئة المترفة الميسورة التي غرق فيها
هؤلاء .

/ ذلك من عمل البحتري . وهناك عمل من الالفاظ العربية
نفسها ، ذلك انها لا تقبل لفظاً اعجمياً إلا اذا صقل بصقالها
ليلتزم معها وكأنها حبات عقد من جوهر خاص فلا تقبل
معها حبات من جوهر آخر إلا اذا صقل معها . وهذه
ناحية ذاتية من فنية العربية لم يفتن لها الا ذو فطنة ، ونحن
نعلم موقف اللغة العربية العنيد في رفض الكلمات الاعجمية
والمركبة إلا اذا صقلت لتسير معها في صقالها ، وقد بقيت
المعضلة حتى اليوم .

على أنه من الصفاء ايضاً ألا تستعمل لغة الأدب كل
لفظ لغوي ، فقد يفسد بوجوده صفاء اللغة ويميل باعتدال الميزان
وكان البحتري يحسّ بحاجة اللغة لهذا الصفاء في الالفاظ .
وكانه إلهام . وهو يقول في ذلك :

إذا نحن كافأناكم عن صنيعه أنفنا فلا التقصير منا ولا الكفر
بمنقوشة نقش الدنانير ينتقى لها اللفظ مختاراً كما ينتقى التبر
تبليت امام الريح منها طليعة وغدوتها شهر وروحها شهر
تقضي ديون المنعمين ويقتنى لهم من بواقي ما أعاضتهم فخر
ونظرة عجلي إلى الفاظ القوافي الصعبة في ديوان البحتري
وهي التي من روي الضاد أو الطاء أو الواو تخبرك أنه لم

يختار للقافية الا ما هو قريب معلوم ، ولذلك كانت قصائده
تلك بيئة القصر .

وليس معنى هذا ان البحري لم يعالج الالفاظ الغريبة ،
بل انه عاجلها ، وله منها عدد لا يحصى كثرة ، ولكنهم
ليدروا عنه عيبه ، قالوا انه لجأ إليه مضطراً لانه لم يجد
لمواضعه سواه ، ولم يلجأ إليه إلا في القصائد التي وجهها
للعلماء والادباء ، وكذلك بقي على ألفاظه المألوفة القريبة في
جل شعره . ونحن إنما نرى - كما أشرنا إلى ذلك من قبل -
[أن البحري ذهب الى هذا الغريب مختاراً لا مضطراً ليقول
فيه أبا تمام لئلا يعاب بقلة محفوظه . ولعل الادعاء خلق من
أخلاق الحضارة]

وإليك أمثلة من الألفاظ الغريبة لتدرك أنه تابع أحياناً
أبا تمام ، وهذه الامثلة في قصيدة واحدة له عينية (١) .
وهذه الالفاظ هي : جوْشوش بمعنى قطعة من الليل ،
جلنفع بمعنى احمق ، وضريك وهي فقير بمعنى ووزنا ،
وهجهجوا بمعنى صاحوا . وانك لتستطيع الحصول على مئات
كثيرة من مثل هذه اذا رأيت الديوان .

وابو العلاء في كتابه عبث الوليد ينهي باللائمة على البحري
في الجرأة على الفاظ اللغة حيث رخص لنفسه كما رخص لها
أبو تمام فخرج عن مألوف اللغة فمدّ المقصور : فبدل ان

يقول الظمأ قال الظماء ^١ وبدل ان يقول سبأ قال سباء ^٢
 ويقول أبو العلاء : ما علمت أحداً من الشعراء مد سبأ ،
 وذلك جائز على القياس وإنما استعمله الفصحاء مهموزاً بغير مد .
 [والبحثري أيضاً يخالف القياس فيقول مكاث اسواد
 اسواد ^٣ ويقول في مكان يبكي يَبِكْ ^٤ وينقل الهمزة فيقول
 في شأو شاء ^٥ ورأى راء ^٦ .

والبحثري يتوسع في استعمال الالفاظ فلا يحدد المعنى الذي
 يريده إذ يصح باللفظ الاتجاه إلى معانٍ كثيرة ^٧ - وهو
 مبحث غير مباحث التورية - وكتاب عبث الوليد لأبي
 العلاء يحوي كل الامثلة التي اوردها البحثري من هذا النوع .
 ولعل أبا العلاء لم ينس عمل الحضارة في عملية التوسع اذ هي
 تنقل الالفاظ من معنى إلى غيره ، والبحثري دائماً كان يريد
 المعنى الحضري لا محالة لأنه يفهم القوم الذين ينشد فيهم ،
 واذن فقد كانت دراسة أبي العلاء إعنائاً للبحثري . وحتى لو كان
 نقد أبي العلاء صحيحاً لكانت عملية التوسع من البحثري
 وعملية النقد من أبي العلاء مساهمة منهما في ازدهار الكلمات

(١) عبث الديوان ص ٨٨

(٢) عبث الوليد ص ٥٩

(٣) عبث الوليد ص ٦٨

(٤) الديوان ص ٤٠٧

(٥) الديوان ص ٥٢٨

(٦) الديوان ص ٨٥

(٧) عبث الوليد ص ١٠١

التي لم تكن العربية القديمة تعرف أمكنة واسعة لاستعمالها .

وابتدأت عملية التنوُّق في شعر البحثري من تنوِّقه في اللفظ وتروقه فيه ولو أخرجه هذا الترقق عن القياس . وقد رأيت من قبل عمله في لفظ شأو وعمله في لفظ يبكي فاذا رأيت هذين اللفظين في بيتيهما أحسست بالتنوُّق ، وها هماذان مع غيرهما ، يقول :

أيها الطالب الطويل عناؤه توتجي شأو من يفوتك شأؤه
ويقول :

بمطاله إني أعُدُّ مطاله عن غير رائك
ويقول :

لو يملكون الضوء بخ لا لم يكن للخلق ضوء
ذهب الكرام بأسرهم وبقي لنا ليت ولو
ويقول :

يتكفّا النحل في حافاتها بالقماري تغنى أوتبك
وطالما خفف البحثري تضعيف الالفاظ فقال في سيّما
سيما وفي سيء سيء وهو ضرب من التنوُّق .

اللفظ مع اللفظ

وهذا ما يسمونه بالازدواج ، والغرض منه النسبة التي تكون بين الكلمتين ، أصححجة هي سائرة على نمط ما يعرف العرب ام غير صححجة لا تسير على النهج ؟ فاذا ارتضاها الذوق العربي بالقياس كانت صحة وسلامة ، واذا رفضها

ومجّتها كانت سوءاً وقبحاً ، وعلى هذا الميزان القياسي سقطت
ازدواجات كثيرة لأبي تمام . وعلى نفس هذا الميزان تسقط
ازدواجات الشعر الرمزي الحديث .

ولتتضح المسألة في نفسك نبسطها لك بعض البسط فنقول :
انظر الى هذه الكلمات : مفصل - طول - الحد - المجد -
الزمان - مسنّ - الذراع - قمة .

فهذه ثماني كلمات . خذ منها كلمتين كلمتين - كما تفعل
في حل الرموز - لتكون من كل اثنتين نسبة قياسية
صحيحة . انك لا شك ستقول : مفصل الذراع . ومسّن الحد ،
وقمة المجد ، وطول الزمان . وانت لم تختّر ذلك الازدواج
بين كل لفظين الا لقوة النسب بينهما ، والنسبة التي فعلتها
انت صحيحة لان القياس يرضاها ، فلو انك جئت بهذه
النسب وامثالها في الكتابة لكنت متبعاً لقانون الكتابة ، ولو
جئت بمثلها في الشعر لكنت متبعاً عمود الشعر . ولكني
سأعرض عليك لتستغرب او لتضحك كيف كانت يزاوج
ابو تمام .

انه قال : مسنّ المجد ، ومفصل الزمان ، ولوعة الندى ، وقلق
المكرمات ، ونحر الغزل ، ورقبة المعذرة ، وكبد المعروف^١ .
ولكن لا تظن ان مزاوجات ابي تمام قد صار كلها لهذا
فمعظم شعره صحيح الازدواج قوي النسب ، ولكنه اتهم
بفساد شعره من القلة الفاسدة في الازدواج ، من حيث لم

(١) عبقرية ابي تمام ص ٩٣

يتهم البحتري في كثير ولا قليل ، بل بقيت نسبة كلها
صحيحة في المزاوجة بين الالفاظ .

ومن بعض المزاوجات تنبع الاستعارة فتكون صحيحة
او سقيمة . وسأضرب لك امثالا في ارجوزة واحدة للبحتري
ترى فيها ازدواجات كثيرة قوية النسب تمتليء بالصحة
والعافية ، وهي مقياس لازدواجات شعره التي تسير كلها
في نفس الطريق . قال يصف سحابة ماطرة :

ذات ارتجاز بجنين الرعد مجرورة الذيل صدوق الوعد
مسفوحة الدمع لغير وجد لها نسيم كنسيم الورد
ورنة مثل زئير الاسد ولمع برق كسيوف الهند
جاءت بها ريح الصبا من نجد فانتثرت مثل انتشار العقد
فراحت الارض بعيش رعد من وشي انوار الربا في برد
كانما غدراها في الوهد يلعبن من حباها بالورد
وفي هذه القطعة وحدها عدد كبير من النسب القوية
بين كل كائنين ففيها الحنين للرعد ، والجر للذيل ، والصدق
للموعد ، والسفوح للدمع ، والنسيم للورد والرنه ، للرعد ، والزئير
للأسد ، والمعان للبرق ، وصنعة السيف للهند ، والانتثار لماء المطر
والعقد ... وكلها نسب قوية صحيحة لان كل لفظة متبوعة
بما يشاكلها ومقرونة بما يشبهها ويقرب منها . وهذا الازدواج
يسميه الجاحظ تلاحم الاجزاء ١ .

وإليك فاسمع بعض هجاء البحتري لتري كيف يزواج

(١) العمدة ج ١ ص ١٧١

فيه بين الكلمات :

جزل الرقاعة فدم يدعي أدباً وليس يفرق بين التين والطين
جهم عبوس على صدر الخوان له تفريق لحظ كأطراف السكاكين
وفي البيتين الجزالة للرقاعة ، والادعاء والجهل للمهجو ،
والصدر للخوان ، وتفريق اللحظ للنهم ، والاطراف للسكاكين .
وبالمزاوجة الصحيحة يعذب لك النطق بالكلام ويلذ سماعه
ويخف متحملة ويقرب فهمه لانه يطابق البدائه اللغوية ويسير
معها . ولو تنافرت الكلمات ولم تتصل الا قهراً كما فعل ابو
تمام لعسر حفظ الكلام وثقل على لسان الناطق به ونفر منه
السامع ولم يستقر في نفسه منه شيء .

وكانوا يقولون ان هذه كانت صناعة الكتاب فتقع المزاوجة
في ألفاظهم اكثر مما تقع في ألفاظ الشعراء فنقلها الباحثون
الى الشعر وتوسع فيها ١

ولا تحسب ان هذا الازدواج لم يكن يعلم بشأنه
البحتري ، بل انه كان يعلم به ويعمل طبقاً له ، وهو الذي
عبر عنه بالنظام البلاغي في مدحه لابن الزيات بقوله - وقد
اشرنا اليه من قبل - :

في نظام من البلاغة ما شك امرؤ انه نظام فريد .
وهذا الازدواج يشعر به البحتري أكثر من الشعور
اللغوي فيعبر عنه تعبيراً أدبياً بارعاً في قوله :

(١) العمدة ج ١ ص ١٧٢

هي الراح تمت في صفاء ورقة فلم يبق للمصباح الا مزاجها
فان تلحق النعمى بنعمى فانه يزين اللآلي في النظام ازدواجها
وليس بغريب على من يحس جمال الازدواج في نظام
الآلي هذا الاحساس ان ينقله إلى أدبه وشعره قولاً وعملاً
كما فعل البحثري . بل إن الاحساس بجمال الازدواج شيء
مركوز في طبع البحثري ينقله الى صناعته . وستكلم
عن هذا الجمال المركوز للازدواج في طبعه عند الكلام على
الطيف والشيب .

التجانس

والفاظ الجملة كلها حين تتصل بنسب قوية لتؤدي غرضاً
أكبر من المزاوجة ، يجب ان تؤديه في وضوح وقوة ،
ولن يكون ذلك إلا بالمشاكلة بين التراكيب والمعاني . وقد
نظرت علوم البلاغة في كثير من اتجاهات هذا التجانس ،
ولكننا ندع ذلك التوسع في البحث ونذهب الى ما نحن
بسبيله من تجانس البحثري .

إن الألفاظ حينما تجتمع وتتركب لتؤدي معنى من معاني
هذا الشاعر تتجانس هي وذلك المعنى أتم التجانس ، فتراكيب
كلماته مقدودة لتؤدي المعنى أتم الاداء وأحسنه ، بحيث لو
خيرت المعاني أن تلبس أثواباً غير أثوابه لما اختارت غيرها
لئلا يغيب المعنى أو يشوه وجه الجمال .

وليس معنى هذا أن الاجزاء مقدودة على حسب المعاني

كما تُقَدَّ الثياب على مقادير الاجسام - كما يقولون - ، أو
أنها لا تشاب بقصور عن الدلالة على معانيها ، أو انها ترق
في موضع الرقة وتعنف في موضع العنف ^١ . لا . ليس
الأمر كذلك ، وإنما قد يُلبس البحتري المعنى الصغير ثوباً
واسعاً ويمنحه ألفاظاً كثيرة ويبدو المعنى مع هذا صافياً
جميلاً واللفظ عذباً حلواً . وقد يلبس المعنى الضخم أثواباً ضيقة
ويجرمه كثرة الألفاظ من حيث لا تحتق ضخامة المعنى ولا
يقل بهاء اللفظ وروعته . وإليك الأمثلة لتدرك صدق نظرتنا
هذه التي نحاول أن نفسر بها بعض ما غمض على النقاد
فأجملوا فيه الكلام إجمالاً .

يقول البحتري متغزلاً :

قد كنتُ حراً وأنت عبد فصرْتُ عبداً وأنت حر
أفتظن أن الكلمات هنا مقدودة على قدر المعاني ؟ لا .
إنها أكثر وفيها بعض القصور . فالشطر الثاني مفهوم من الاول ،
وقد دلت عليه كلمة « كنتُ » . وكلمة أنت في البيت الثاني
ليست في موضعها ولكن كلمة صرت دلت على الصيرورة
فيها ، والصيرورة كلها مفهومة من قوله « كنت » ولكنك
مع هذا لا تستغني عن ذيل الثوب الذي صنعه البحتري من
الشطر الثاني ليتم تمام المعنى . وأما الألفاظ فقد حمل بعضها
بعضاً ان تؤدي مجتمعة ذلك المعنى المراد :

ويقول البحتري :

(١) الادب التوجيهي ط ١ ص ١٩٦

هذا ابن يوسف في يدي أعدائه يجزى على الايام بالأيام
فهل تظن ان هذا الكلام لا يشاب بقصور عن الدلالة
في ذاته ؟ لا . وكأنه مشوب بالقصور في ذاته ، فما المراد
من الايام الأولى والأيام الثانية ؟ ولكن أنظرنا ، فإنه
كامل المعنى مسبوك اللفظ ، وليس به قصور ، فالذين
سمعه من فم البحثري والذين قرأوا تفصيلات التاريخ يعرفون
المعنى ولا يريدون زيادة في الالفاظ . وابن يوسف هذا
هو محمد بن يوسف الثغري ، حارب للخلافة فانتصر لها في
المواقع ، ثم غضب عليه رجال الخلافة فسجنوه . وقد عرفت
إذن ما يراد بالأيام والايام .

ومثل هذا قول البحثري يمدح قائداً مسلماً :

بعض بغضائكم فليس مفيداً أو يرد الأديان بالسيف ديناً

ومثله قوله يصف جارية :

كملت أربع لها بعد عشر ومدى البدر أربع بعد عشر

ومثله قوله وهو أبرع فناً :

قل الكرام فصار يكثر فذهم ولقد يقل الشيء حتى يكثر

وإذا نظرت في هذه الأبيات لم تغب عنك معانيها ، ولم

تحتج لزيادة في ألفاظها فالأديان والدين معروفة والعدد في

البيت الثاني للسنين ثم لليالي ، والقلة والكثرة بالنسبة لشيء

واحد هذه من جانب وهذه من جانب . وكلها إشارات

لطيفة يتضح بها المعنى وليست كإشارات أبي تمام . ولعل

(١) عبقرية أبي تمام ص ٥٩

المعنى الاخير من ابتكارات البحتري .

ويقول أبو عبادة :

بوجهٍ تُعشي السيف ضياءً وسيف تُعشي الوجه وقوداً
ومعنى الشطر الاول رقيق ومعنى الثاني عنيف ، ولكن
الالفاظ هي الالفاظ ، فهل رق البحتري عند الرقة ، وعنّف
عند العنف ؟ لا . إنه بنفس الالفاظ رقّ وبها نفسها عنّف
مع تغيير أوضاع الكلمات تغييراً يسيراً ، والمجانسة بين
الالفاظ والمعاني باقية على قوتها بين المعنيين والاسلوبين .

وكانوا يقولون إن ابا عبادة مشهور بأنه صاحب اللفظ
العذب والعبارة الرصينة المتينة ، وان ابا تمام حبيب بن
اوس صاحب المعاني المبتكرة المخترعة ، وليس معنى هذا
ان البحتري لم يكن يجيد المعنى مطلقاً او ان ابا تمام لم
يكن يجيد اللفظ ، بل معناه ان الصفة الغالبة على البحتري
هي تجويد اللفظ ، والصفة الغالبة على ابي تمام هي ابتكار المعاني .^٢

وفي هذا القول من الخطأ ما فيه ، فان البحتري يختارهما
معاً اذ لا يمكن الفصل بينهما في الانشاء والزمن ، ولا سيما
عند الشاعر المطبوع ، ولكننا مضطرون هنا ان نتصور ان
هناك انفصلاً واقعاً بين العبارات ومعانيها - انشاءً وزمنياً
لتقرب للأفهام قدرة البحتري على صياغة عباراته لمعانيه .

ولذلك نتجاوز قائلين : إن هناك محاولتين من أبي تمام

(٢) الأدب التوجيهي ط ١ ص ١٩٦

في إظهار المعاني ؛ هما الغوص عليها ، وإلباسها على عجل ما
اتفق لها من الاثواب كما يفعل بجثث الغرقى الأحياء يغطون
بما اتفق من الأغطية لتدفئتهم ، وهي كأنها عملية واحدة
لان المشقة التي بذلت في الانقاذ غطت على قيمة الغطاء .
وأما البحتري فهناك له ثلاث محاولات : هن انه ينقذ المعنى
من القرار او من الضحاضاح ، ثم يظل يختار له الغطاء الذي
يدفئه كل الدفء ، ثم لا يرضى ان يكون الغطاء الا جديداً
جميلاً ، وحينئذ تبدو صنعة ابي تمام باهرة من ناحية المعنى
والمشقة ، وتبدو صنعة البحتري باهرة من ناحية العبارة
والشكل . والحقيقة انهما كلاهما قد غاصا على المعنى وتعبا
في إنقاذه ، وانما تختلف طريقة الذكي النشيط عن طريقة
البطيء المتأنق ، ومن وراء ذلك ايضاً قال القدماء ان
ابا تمام أفسد الاسلوب وهدم التقاليد ، وان البحتري سار
على الدرب ولزم عمود الشعر .

ويبدو لي ان صاحب الموازنة قد فهم ذلك فعدّد للناس
سرقات البحتري للمعاني من الشعراء عامة ومن ابي تمام
خاصة ، ليدل على غزارة معاني البحتري ، ولكنه على طريقته
مال الى ان يجعل الدراسة تفضيلاً للبحتري فأثبت له من
المعاني ما لم يجيء به صاحبه وهو دليل في جانبنا .

وهناك قول آخر قاله اكثر القدماء . قالوا ان البحتري
عاش عيلة على معاني ابي تمام ، وفي هذا دليل آخر على ان
البحتري لم يكن هيناً عند المعاني . اوليست هي معاني

ابي تمام ؟

وبعد ، فأننا لم نرد من كل ما قلناه ان ننزه البحتري
عن النقص ، فان النقص - كما يقول ابن المعتز - من
طبائع المخلوقين ، ولكننا أردنا ان نعطيه حقه المبهم او
حقه المسلوب .

وهناك شيء آخر في اسلوب البحتري ، ذلك هو التأنق
او الرشاقة - كما قالو - ، ولعل صفة التأنق أو الرشاقة
صفة جديدة في كلام البحتري ، فما هي ؟

إنه لم يوصف كلام أحد بهذا الوصف - من المشهورين
القدماء - سوى اثنين ، واحد في الكتاب هو ابن المقفع ،
وواحد في الشعراء هو البحتري ، والرشاقة في اللغة حسن
القد ولطفه ، ورشاقة القوس خفتها وسرعة سهمها ، ورشاقة
الظبية مدّ عنقها^١ . والتأنق صنو للرشاقة فالشيء الأنيق
هو الحسن المعجب .

والتأنق في العمل يكون باتقانه وإحكام صنعته^(٢) . ومن
هاتين المادتين نستطيع ان نفسر ما اراده القدماء بتأنق
البحتري ورشاقة أسلوبه .

إنهم يريدون انه كلام حسن القد ، وحسن القد صفة
من الجمال . وانه كلام لطيف ، والالطف خفاء في السر .

(١) مادة رشق بالقاموس المحيط .

(٢) مادة أنق بالقاموس المحيط .

وانه خفيف على النفس والسمع سريع المروق الى القلب .
وانه يمدّ عنقه ويتلفت كما تمدّ الظبية وتتلفت . وانه متقن
محكم . وهذه كلها اوصاف ادبية تقرب إلينا المراد ولكنها
لا تحدده ، ونحن نريد تحديده .

والمراد من هذا الوصف على التحديد ان التألق والرشاقة
التي وصف بها كلام البحتري شبيهة بالثوب المقدود ليم به
جمال الجسم أو ليسد نقصاً في جماله واستوائه ، فهو مقدود
قدّاً فيه سر الصنعة وعين الصانع ويده ولباقة ومهارته ،
بحيث يلفت الانظار ويستهيوي النفوس .

وكل الاثواب عملتها عين الصانع وايديهم ولباقتهم ،
ولكنها لاتلفت نظراً ولا تجذب نفساً ، فما هو السر يا ترى
بين الثوبين ؟ ان السر كل السر في ادراك الصانع وشعوره
بالجمال وقدرته على خلق ما شعر به جميلاً سوياً . وقد يكون
السر في تكسر جزء من الثوب ، أو شدة ، أو في سير
خيوط من الخيوط ليوفق الصانع بين شعوره ونظرة عينيه
وعمل يده .

وأحسن ما يقال في ذلك تعبير عصرنا الذي يقول انه
« سر الصنعة » فلا تسأل عنه . واليك فاستمع الى هذه
التعابير لتسمع للبحتري عجباً . وسنخليها من الوزن لئلا
نغوّه عليك بدقات الاغان . وقد وقع عليها نظرنا في ديوانه
بغير اختيار ولا أناة !

عذرت سيفي في نبوّ غراره - لا تحسبني قد اغتفرت

الرزء فيك - زجر النوتي فوق علاته - اذا سكبت سماء
ثنت بسماء سكوب - شواغله من المجد تعني - لبست منه
مواهب ينشرن نشر الورد .

فاذا سمعت الى مثلها في أوزانها والخانها سمعتها اتم جمالاً
واكثر استواء ، وهو يقول :
ماء وجهه اذا تبليج أعطا ك اماناً من نبوة الدهر ماؤه
ويقول :

حساماً نصرة ويداً سماح وجرأ نائل يتدفقان
ويقول :

شرى بارع المجد مستظهما على القوم في رفع اثمائه
ويقول :

ما المساعي الا المكارم ترثا د والا مصانع المجد تبني
ولعل صنعة البديع تلحق بالبحثري في هذا المكان ، وقد
أولع بصناعته ، ولكنه كان أملح من حبيب صنعة واحسن
مذهباً ، فاذا اخذ منه شيئاً لم تظهر عليه الكلفة ولا المشقة
والفضل في ملاحظة بديعه وقصد مذهبه يرجع الى ابي تمام
من طريقين ، هما انه جسّره عليه فاقتحم امامه الباب ، ولكنه
دخل فيما يعاب وحاد البحثري عن السبيل واكثر الحيد .
ولكن ابا عبادة طالما قلدا ابا تمام في الافساد بالبديع
فسخف كلامه وغث ومنه قوله :

قد بين البين المفرق بيننا عشق النوى لربيب ذاك الرب رب^١
وقوله :

لتصدقني وما اخشاك تكذبني ماذا تأملت او املت في امل^٢
وقوله :

كالبري في البري ومحبس احيا نا نسوعاً مجدولة في النسوع
وهو غريب سخيف .

تنضيد المعاني

وتتج من صحة النسب في ازدواج ألفاظ البحري اول
ثمرة وهي صحة المعاني الكبرى ، فان المعنى يفسد بفساد
جزئه ويصلح بصلاحه ، والمعنى الصحيح كقول البحري :
زرعت رجاء في ذراك مبكرا وجل حصاد المرء من حيث يزرع
ثم نتج ايضاً ان اقتدر البحري على احسان تأليف
الكلام فعوض بذلك النقص الذي لحقه من قلة محفوظه
وضعف ذكائه عن ابي تمام ، ولمعت عباراته واساليبه عن
ذلك الناتج من الحفظ الكثير ، واستطاع البحري ان
يتخلص من ظل استاذة وان يرسل هو ظلاً جديداً في العربية
مطبوعاً بطابعه مؤرجاً بنسبته . وقد أسلمته هذه النتائج الى
درجة أعلى وهي تنضيد المعاني .

والتنضيد يكون بأشياء كثيرة وضع البلاغيون لكل نوع
منها اسماً ، واهمها فيما يتصل بدراستنا استيعاب المعاني جمعاً

(١) الوساطة ص ١٧٩

(٢) الديوان ص ٢٣٢

و تفريقاً ثم اتقان التناسب في المقابلة او المشابهة ثم مضاعفة
عملية الازدواج .

قال البحتري يمدح ابن خاقان في لقاء الأسد :
حملت عليه السيف لا عزمك انثنى ولا يدك ارتدت ولا حده نبا
وكل الصور الممكنة ، والتي تمكن الشجاع من الضرب ،
قد أتى بها البحتري في هذا البيت ، فعزم النفس وانطلاق
اليـد وحنـد السيف المرهف هي عوامل الضرب ، وليست
هناك عوامل غيرها ، وبهذا يكون البحتري قد سدّ على
السامع اماكن الظن في النقص حين جاء بهذه الصور كلها .
ومثله قوله :

انت اندي كفاً واشرف أخلا قاً وازكى قولاً واكرم فعلاً
وليس المرء الا بدنا وروحا وقولا وفعلاً ، فلم يبق
بعد ذلك شيء .

وقال البحتري :

ولما التقينا واللوى موعد لنا تعجب رأي الدر منا ولاقطه
فمن لؤلؤ تجلوه عند ابتسامها ومن لؤلؤ عند الحديث تساقطه
فقد جمع البحتري الاسنان والكلام في صفة واحدة هي
مشابهة الدر ، ثم عاد إليهما ففرق بينهما ، وجعل لكل منهما
حالا تميزه عن صاحبه ، فالاسنان مجلوة للنظر عند الابتسام ،
والكلام مجلوة للسمع عند التساقط .^١

ولما كانت الاشياء تتميز باشباهها او اضدادها كان من
الضروري ان يقع في كلام الناس مقابلات بالضد او مشابهات

(١) شرح عقود الجمان ص ١١٩

بالشكل والمجاورة لتتضح المعاني وتبرز حياتها بالتعاون او
التخالف ، ويكون هذا العمل ركنا من اركان التنضيد .
والبحتري يجمع المعاني المتقابلة في مثل قوله :
رائح مغتدٍ بحلم ثقيل راجح وزنه وفهم خفيف
ومثل قوله :

ييجل اجلالا ويكبر هيبة اصيل الحجا فيه تقى وتواضع
وتسود من حمل السلاح ولبسه سراويل وضاح به المسك رادع
ويأتي البحتري في جمع الامور المتناسبة بالجيد الرائع
فيقول في الابل التي انحلها السير :

كالقسي المعطفات بل الاسهم مبرية بل الاوتار
وقد شبه البحتري الابل بالقسي في الرقة والانحناء ، فلما
أراد تكرار التشبيه نظر الى ما يناسب القسي ، ليظل مع
السامع في جو واحد . ولئلا يفرق خاطره بالمباعدة بين
الاشياء جاء بالاسهم وبالاوتار .

ثم حدث من البحتري في تنضيد المعاني ازدواج مركب ،
وذلك بأنه كان يقرن شيئاً الى شيء ، ثم يأتي فيهما بشرط
وجزاء ، ويجعل في الشرط ازدواجين وفي الجزاء ازدواجين ،
وذلك مثل قوله :

اذا مانهى الناهي فلج به الهوى أصاغت الى الواشي فلج بها الهجر
فقد جاء الشاعر بالعاشق وحيبيته ، ثم جاء بشرط وهو
نهى الناهي ، وجزاء وهو الاصاغة ، وجعل في الشرط ازدواجين

من نسبة النهي للنهي واللجاج الى الهوى ، وفي الجزء
ازدواجين من نسبة الاصاغة اليها واللجاج الى الهجر .
ولا يخفى عنك ان في البيت تنضيداً آخر من المقابلة ،
وتنضيداً ثالثاً من الجمع بين الهوى والهجر في صفة اللجاج .
ولو قرأ قارئ هذا البيت قبل هذا الكلام لبان له
واضحاً وسهلاً شأنه شأن كل مخترع دقيق وصل الى يدنا
لاستعماله ، فانه يبدو رخيصاً هيناً ، ولكننا لو نظرنا اليه
لفهم تركيبه لراعتنا صعوبته . ان هذا البيت الذي تراه
أمامك بهذه السهولة مخترع معقد التركيب كما رأيت وكأنه
آلة من آلات زماننا .

ومثل هذا قوله :

إذا احتربت يوماً ففاضت دماؤها تذكرت القربى ففاضت دموعها
فجاء بالعداوة والقربى في شرط وجزاء ، وجعل في كل
منهما ازدواجين ، وجعل في البيت تعقيدات أخرى يسهل
عليك إدراكها . ومن العجيب انك وانت ترى للبحثري
هذا التعقيد الدقيق لا تكاد تدرك انه خالف طبعه او اغرب
في معناه .

ولعل الجرجاني يقصد بقدرة البحثري على اظهار المعقّد
مظهر القريب المألوف ما قصدنا اليه نحن ، وذلك حين يقول :
وانك لا تكاد تجد شاعراً يعطيك في المعاني الدقيقة من التسهيل
والتقريب ، ورد البعيد الغريب الى المألوف القريب ما يعطي
البحثري أو يبلغ في هذا مبلغه ، فانه ليروض لك المهر

الأرن رياضة الماهر حتى يعنق من تحتك إغناق القارح المذل ،
وينزع من شماس الصعب الجامح حتى يلين لك لين المنقاد
المطيع^١ .

ويقول الجرجاني بعد ذلك الكلام : « ثم لا يمكن ادعاء
ان جميع شعره في قلة الحاجة الى الفكر ، والغنى عن فضل
النظر ، كقوله : فؤادي منك ملآن ، أو قوله : عن أي ثغر
تبتسم . وهل ثقل على المتوكل قصائده الجياد حتى قلّ
نشاطه لها واعتناؤه بها الا لانه لم يفهم معانيها كما فهم معاني
النوع النازل الذي انخط له إليه ؟ أتراك تستجيز ان تقول :
إن قوله : منى النفس في أسماء لو تستطيعها ، من جنس
المعقد الذي لا يحمد ، وان هذه الضعيفة الاسر الواصلة الى
القلوب من غير فكر أولى بالحمد وأحق بالفضل؟^١

ويرى الجرجاني في مركز الطباع ان الشيء اذا نيل
بعد الطلب له والاستتياق اليه ومعاناة الحنين نحوه كان نيله
أحلى وبالميزة أولى ، وكان موقعه من النفس أجلّ والطف
وكانت النفس به أضن وأشغف ، ولكن لا الى الحد الذي
يتعب الفكر ويجهد البحث ، وانما هو بقدر ما يحتاج اليه ،
وضرب لأقواله هذه أمثالا منها قول البحري :
ضحوك إلى الابطال وهويروعهم وللسيف حدّ حين يسطو وروثق

(١) اسرار البلاغة ص ١٢٤

(٢) اسرار البلاغة ص ١٢٤

معراج الرقي

عرفت فيما سبق ان البحثري سار في طريق منتظمة
صاعدة في الدراسة ، وقد سارت معانيه معه في نفس الطريق ،
سارت دائماً في مدارج الرقي حتى أوفت على التمام ، أو مات وفي
نفسه منها شيء . وكان البحثري في اول امره يعالج المعنى
فاذا هو ناقص أو هو خطأ ، ثم لا يزال يعالجه حتى يذهب
خطؤه ويسدّ نقصه ، ولكنه قد يلتوي عليه ، فاما ان يجيء
ضعيف الصنعة ، أو قليل الاستواء ، ولكنه لا ييأس منه بل
يحتمل عليه ويظل يبعد به عن التكلف ويرقى به حتى يصل .

ولا أريد بهذا ان كل معانيه تسير في هذه المراحل
درجة درجة ، فقد يستوي له المعنى لأول وهلة وقد يزاوله
مرتين أو اكثر ، وقد يقول الجيد ويريد ان يقول اعلى منه
فاذا هو يعود به ضعيفاً . ونضرب لك هنا أمثالاً تدلك على
طريقة سيره في ترقية معانيه :

قال أبو تمام وأخذه من ابي نواس :

يستنزل الأمل البعيد ببشره بشرى الخيلة بالغياث المغدق
وكذا السحائب قلما تدعو إلى معروفها الرواد ما لم تهب
أخذه البحثري فقال :

كانت بشاشتك الأولى التي بدأت

بالبشر ثم اقتبلنا بعدها النعما

كالمزنة استؤنفت أولى مخيلتها

ثم استهلّت بغزر تابع الديما

فقال ابو عبد الله القطريلي للبحثري : وقعت دون ابي
تمام في هذا المعنى ! فقال له البحثري : لعمرى ! ولكن
سأرضيك فيه ، ثم عاجله فحسّنه ، فكان مما قاله لأبي الصقر :
يوليك صدر اليوم قاصية الغنى

بغوائد قد كنّ أمس مواعدا

سوم السحاب ما بدأن بوارقا

في عارضٍ الا انثنين رواعدا

فأحسن ، إذ الرعد لا يكون إلا ومعه الغيث فكأنه
قال : إلا انثنين مواطرا . ولكنه ظل ناقصاً . ثم ما زال
يردّه ويقول فيه حتى قال :

ضحكات في إثرهن العطايا وبروق السحاب قبل رعوده

فأخطأ ، حيث أقام الرعد في معنى الامطار ولم يسبقه
أحد إلى ذلك ١ ثم أوفى على الغاية فقال : ٢

متهلل طلق إذا وعد الغنى بالبشر أتبع بشره بالنائل

كالمزن إن سطعت لوامع برقه أجلت لنا عن ديمة أو وابل

وقد سبق أن أخطأ في هذا المعنى وهو يحاوله فقال :

سقى أرضه هطلان السحاب إذا التهب البرق من رعوده

فهل هذا صحيح ؟ إن البرق والرعد يحدثان في السحابة

(١) الموشح ص ٣٤٢

(٢) ديوان المعاني ج ٢ ص ٢١٧

معاً في وقت واحد ، وإنما يصلنا ضوء البرق قبل صوت
الرعد لسرعة الضوء وبطء الصوت ، فكان الاولى ان يعكس
البحثري المعنى فيقول : إن الرعد صوتٌ مدعوراً من البرق .
ومن امثله في ترقية معانيه قوله يمدح ابن خاقان :

يا بؤس نفس عليها جدّ آسفة وشجو قلب اليها جدّ مرتاح
تهتز مثل اهتزاز الغصن أتعبه مرور غيث من الوسمي سحاح
فهل يتعب الغصن مرور الغيث ؟ . ولكنه عاد الى المعنى
فأصلحه في مدحه للمنتصر فقال :

وتهتز هزة غصن الأراك عارضه نسم ريح خصر
ومن تشبيهاته التي قصر فيها ثم عاد فأصلحها قوله :
صفة الحرّ أن تنهى علاه وكذا الحول أن تنهى شهوره
فليس هناك مقارنة بين الحرّ والحول . وقد عاد عليه
بالاصلاح فقال :

متى يذهب مع الايام ينفد نفاد الحول تنفده الشهور
فاستقر التشبيه في موضعه .
ومن معانيه التي ألح عليها بالتهذيب والاصلاح حتى بلغت
غاية الكمال قوله :

سام بالمجد فاشتراه وقد با ت عليه مزايده للسحاب
واجد القصد طرفه في ارتفاع من سمو وكفه في انصباب
ثم عاوده فقال :

لا تنظرن إلى الفياض من صغر
في السن وانظر إلى المجد الذي شادا

ان النجوم نجوم الليل أصغرها
في السنّ أذهبها في الجو إصعادا
وقال في مثله :

دان على أيدي العفاة وشاسع^١ عن كل ندّ في الندى وضريب
كالبدّر أفرط في العلو وضوؤه للعصبة السارين جدّ قريب
ثم عاوده فقال فيه قوله لم تدع لأحد بعده أن يمسه فقال :
دنوت تواضعا وعلوت فخرا فشأنك انخفاض وارتفاع
كذاك الشمس تبعد أن تسامى ويدنو الضوء منها والشعاع

وهكذا كانت محاولات البحثري للرقى بالمعنى إذا استعصى
عليه فلم يجده ، أما إذا وجده فإنه يأخذه ويحسنه حتى لا يبقى
لصاحبه حق فيه ، ومن ذلك قول بشار :
ذات الثنايا العذاب من دونهنّ عذاب
أخذه فاقتدر عليه وحسنه قائلا :

سقم دون أعين ذات سقم وعذاب دون الثنايا العذاب
وقال أبو نواس :

بحّ صوت المال مما منك يشكو ويصيح
أخذه البحثري وأصلحه قائلا :

فكم لك في الايام من يوم وقعة طويل من الاهوال فيه عويلها
وفي موازنة الآمدي ما يشفي ويغني في هذا الباب .
غير ان هناك خلافاً بين المرزباني صاحب الموشح وبين

(١) الموازنة ص ١٣٤

الآمدي صاحب الموازنة ، فالמושح يدعي ان البحتري سرق
من ابي تمام خمسمائة بيت ١ .
والموازنة تدعي ان المعاني التي أخذت من ابي تمام خاصة
لا تزيد على مائة بيت ٢ . والمسألة بينهما مسألة عدد ، اما
عندنا فهي مسألة ارتقاء بالمعاني او انخفاض بها .

وقد أحسن البحتري عملية قلب المعاني ، فيأخذ معنى
الشاعر ثم يقول في ضده ، ومن ذلك قول غنتره :

وإذا سكرت فاني مستهلك مالي، وعرضي وافر لم يكلم
وإذا صحوت فما أقصر عن ندي وكما علمت شمالي وتكرمي

فغنتره يقول : إنه يستهلك ماله اذا سكر واذا صحا ،
ولما كان الصحو لا يكون الا بعد السكر فيكون الداعي

الى كرم غنتره هو السكر في الحالين ، اخذه البحتري فقال :

وما زلت خلا للندامى اذا انتشوا وراحوا بدوراً يستحشون أنجما
تكرمت من قبل الكؤوس عليهم

فما استطعن ان يتحدثن فيك تكربما
فجعل الكرم قبل السكر ، وهو أجود من قول غنتره
كما ترى ٣ .

ومن امثلة تصرفه في المعاني قول الأعشى :

(١) الموشح ٣٤٢ .

(٢) الموازنة ١٣٧ .

(٣) ديوان المعاني ج ١ ص ٣١٧

* وكأس شربت على لذةٍ وأخرى تداويت منها بها
أخذ هذا المعنى كثير من الشعراء . ويدعي أبو هلال
أن كل من أخذ هذا المعنى قصر في العبارة عنه ، وادّعى
أنه لا يجوز أن يُؤتى بمثله ، فقصر أبو نواس حيث قال :
* وداوني بالتي كانت هي الداء .

فحشا الكلام بما لا وجه له وهو قوله « كانت الداء » ،
وقصر المجنون إذ قال :

* ولا يتداوى شارب الخمر بالخمر .

وقال أبو هلال ولا يقع هذا مع قول الأعشى موقعا ،
وقصر البحتري كذلك إذ قال :

* تداويت من ليلي بليلى فما اشتفى

من الداء من قد بات بالداء يشتهي^١

وأنا أرى المجنون والبحتري لم يقصرا ، ولكنهما أنكرا
على الأعشى صدق قضيته ، غير أن البحتري جاء أحلى من
قيس مرتين : الأولى أنه قدم للأفكار دليلا وهو أنه جرب
الدواء فلم يفده كما أفاد عنتره ، والنفوس تفرق في الانتفاع
بالدواء . والثانية أنه نقل المعنى من الخمر إلى الغزل نقلا
رائعا محمودا .

وعدت للبحتري معانٍ دقيقة قد بلغ الغاية في تصويرها
وتوضيحها ، ومنها قوله يمدح :

(١) ديوان المعاني ج ١ ص ٣٢٩

إذا سار كف اللحظ عن كل منظر
سواه وغض الطرف عن كل مسمع
فلست ترى الا افاضة شاخص
إليه بعين او مشير باصبع
ومنها قوله :

ويخشى شذاه وهو غير مُسلّط
وقد يُتوفى السيف والسيف في الغمد
ومنها قوله :

ولما رأيت الخطب ضنكاً سبيله
وقد عظم المكروه واستفزع الأمر
عزمت فلم تقعد بعزمك حيرة الـ
مـروع ولم يسدّد مذاهبك الذعر
ومن اجود ما قال ولا مثيل له :

طلبت دخول الشرك في ارض الهدى
بين المداد والسن الاقلام
فانظر الى دقته في تصوير منع الاقلام عن الكتابة في
الشرط الثاني .

وليس ادقّ منه نظراً والتفاتاً في قوله :
إن الخطوب طويني ونشرني عبث الوليد بجانب القرطاس
ومن معانيه التي أفردوه بها قوله :
من قهوة تُنسي الهموم وتبعث الشوق الذي قد ضل في الاحشاء
يخفي الزجاجاة لوئها فكأنها في الكف قائمة بغير اناء

وقوله وهو أقرب ما اتصل فيه الادب بالفن ، وذلك في
وصف ايوان كسرى :

تصف العين أنهم جدّ أحياء ، لهم بينهم إشارة خرس
يغتملى فيهم ارتيابي حتى تتقراهم يداي بهس
وسنعود اليه عند الكلام على وصف القصور .

ومن أروع ما قال وأدقه :

قوم إذا لبسوا الدروع لموقف لبستهم الاعراض فيه دروعا
وقوله :

في معركٍ ضنك تحال به القنا بين الضلوع اذا انحنى ضلوعا

ولسنا ننتهي اذا تتبعنا البحتري بيتاً بيتاً من عرض محاسنه
ودقائق فنه الجزئية ، ومع كل ذلك فقد قالوا ان البحتري
ظل يخطئ في الشعر حتى آخر ايامه ، ولم يعد على ما اخطأ
فيه بالاصلاح ، وذلك مثل قوله في رثاء المتوكل :
محلّ على القاطول أخلق دائره

فقالوا انما يقال دثر مخلقه ، ولا يقال أخلق دائره ، لأن
الشيء الذي دثر لابقية له حتى تخلق او تستجد ولكن يُرد
على هؤلاء بأن المراد من اخلق دائره دثر مخلقه وهو قلب
جائر في لغتنا .

وقالوا ان البحتري أبعد في الاستعارة ولم يصب حيث يقول :
على باب قنسرين والليل لا طخ جوانبه من ظلمة بسواد

قالوا ان البيت ليس على السكة المختارة، وقوله «لا طخ جوانبه
من ظلمة بسواد» من بعيد الاستعارة .
وعابوا عليه قوله :

لتسرين قوافي الشعر معجلة ما بين سيرة المثلى وشرده
فقال بعض الكتاب للبحثري : قد رددت الضمير في
سيره الى القوافي ، فقل سيرها . وكان في المجلس رجل من
انصار البحثري حاضراً فقال له : انما رده الى الشعر . فقال
البحثري : لا عذمتك عضداً وناصر ا^١ .

ويرى النقاد ان غربة البحثري ورحلاته كانت عاملا قويا
في انضاج شعره ، شأنه في ذلك شأن كل شاعر غريب عن
بلده ، فانه يعمل ليعيش ابدأ ، ويخشى ان يزل ، وحاله
في ذلك حال الاقلية لاسند لها الا منها ، وقد قال اسماعيل
بن رغبان : ما اصفى شاعر مغترب قط^٢ .

بناء القصيدة

النقاد مختلفون في ابتداءات قصائد البحثري فبينما يراها
ابن رشيق ضعيفة اذا قيس بباقي ابيات القصيدة يفضلها
القاضي الجرجاني صاحب الوساطة^٣ بجودة الاستهلال على
ابي تمام والمتنبي ، ويفضلها عليه بالتخلص والانتقال من

(١) الموشح ص ٣٤٠

(٢) العمدة ج ١ ص ١٤٢

(٣) الوساطة ص ٣٧

غرض الى غرض وكذلك يفضلها عليه بالحاقمة .
وابن رشيقي يأبى أن يخضع لرأي الجرجاني في ذلك ،
ويرى ان الموازنة التي عملها الجرجاني بينه وبينها كانت ظالمة
إذ اعتمد الجرجاني فيها على رأي الحاتمي ، والحاتمي رجل
يحسد البحري ويفض من شأنه غصاً شديداً ويجور عليه جوراً
بيناً^١ . وحديث الحاتمي في البحري طويل ولم نر لنقله هنا
من ضرورة^٢ .

والآمدي يفضل ابتداءات البحري ويتحزب له ، وهو
صاحب الموازنة والترجيح بين الطائنين ، وقد نوه في كتابه
بالبحري اعظم تنويه .

ومن الحق أن يقال ما هو بين بين ، فلا يعطى البحري
فوق حقه ولا يعمط قدره ، فالبحري مطالع قوية واستهلاكات
رائعة ، وله كذلك مطالع واهنة جداً ، ولذلك سرّ سنأتي
عليه ومن مطالعه القوية التي يعزّ مثلها :

ميلوا الى الدار من ليلي نحيبها

نعم ونسألها عن بعض أهلها

قف بوادي الأراك فاحبس قليلاً

مقصراً من ملامة أو مطيلاً

(١) العمدة ج ١ ص ١٥٥

(٢) انظر حديث الحاتمي في البحري زهر الآداب ج ٣ ط ٢ ص ٢٠ .

صنت نفسي عما يندس نفسي

وترفعت عن جدا كل جبس

وهذه الجيدة وتلك الضعيفة كثيرة جداً ، ولكننا نريد
أن نكشف هنا سر ذلك الضعف حيناً والقوة حيناً آخر ،
لندرك منه ذلك التفاوت الذي حدث أيضاً في شعر البحري .
والمك الميان :

إن البحري حين كان ينظم القصيدة لم يكن ينظمها
بالترتيب الذي تظهر به على الناس ، بل كان البحري يملئ
من القصيدة ما يقف عليه من المعاني ، ثم يغيب عنها ويأتيها
بما يسبق ما أملاه أو ما يلحق به حتى تتم القصيدة . وقد
تلمح أنت له في بعض قصائده ما يدل على ذلك . فأنت
ترى أنه قد يصرع في القصيدة مرة ومرتين وثلاثاً ، وما
ذلك إلا لأنه يذهب عن القصيدة ثم يعود إليها وكأنه عود
ابتداء ، ولو كان يلزمها لما صرّع فيها غير مطلعها .

ودليل آخر ، وهو أنك ترى البحري ضعيفاً ، حتى إذا
مضى في القصيدة بعض خطوات رأيت أنه قد قوي ، ثم ازداد
قوة ، ثم ازداد حتى يبلغ الغرض . وقد يظل دائماً قوياً حتى
النهاية ، وقد يعود الى الضعف . وما ذلك إلا لأنه كان
ينشئ أبيات الغرض المقصود أولاً ثم يعود إلى حشوها
بالأغراض الأخرى ليكملها .

ودليل ما قلناه أن ابنه أبا الغوث حدث أن أباه
أجبل عشر سنين ، فما كان يستطيع أن يقول بيتاً واحداً

من الشعر ، ثم دعا ابنه في وقت من الأوقات فجاء اليه فأملى عليه .

أملى عليه ابتداء قصيدة كان قد قال بعضها ، وأملى عليه وسط قصيدة أخرى ، وأملى عليه قطعة مدح من قصيدة ، وأملى عليه تشبيهاً في قصيدة . فسأله ابنه عن فعله هذا ، وظن أنه من أشعار قديمة له أخذ يملئها عليه مخافة ضياعها ، فقال له : يا بني ، قد عرفت المدة التي قطعت فيها قول الشعر ، ووالله ما كنت أستطيع فيها أن أنظم بيتين ، وأما الآن فقد اطلعت فيها طلع بحر من الشعر لا يلحق غوره !

وتستطيع أن تدرك من هذا أن القصائد التي كان عملها البحتري قبل أن يُجبل كانت ناقصة ، بعضها من الاول ، وبعضها من الوسط أو غير الوسط ، فجاء يكملها . وحاله من قبل الاجبال يدلنا على كيفية صناعته . وقد غاب هذا السبب على ابن رشيق فقال ٢ : ومن الشعراء من لا يجيد الابتداء ولا يتكلف له ، ثم يجيد باقي القصيدة ، وأكثرهم فعلاً لذلك البحتري ، كان يصنع الابتداء سهلاً ويأتي به عفواً ، وكما تمادى قوي كلامه . ولا ندري كيف غاب السبب على ابن رشيق !

وتستطيع أن تعلم أيضاً أن البحتري ما كان ينشئ

(١) الموشح ص ٣٣٣

(٢) العمدة ج ١ ص ١٥٥

شعره قصيدة قصيدة ، وإنما يفتح لنفسه أغراضاً كثيرة من القول ، وينشيء لكل غرض مجراً وقافية ، ثم يجعل يزيد في هذه ويزيد في هذه حتى يكمل لكل غرض قصيدته . وأمر البحري في ذلك غريب حيث يملئ في مجور تتعدد انغامها وتختلط ، وينشيء في قوافٍ متنوعة وأغراضٍ شتى ، وهو جهد لا يقدر عليه الا مثله .

ولسنا ندري الاسباب التي أخذت ذهن البحري وعطّلت لسانه عشر سنين - لو صحّ هذا الخبر - وهي مدة طويلة بالنسبة لرجل كان لا يفتأ وهو شاب ينشد الباعة ، ولكنها حالات تعترى ذوي الطبع ولا تعترى ذوي الصنعة . والغريب أيضاً في أمر هذا الاجبال أنه وقد ظل عشر سنوات لم يُمتّ خاطر البحري ، فلما صحا منه صحا اتم ما يكون حدّة في الطبع وقدرة على الانشاد .

وكان من شعراء الجاهلية والاسلام من هذب شعره ، وزهير معروف بحوليّاته ، والخطيب كان كزهير يقضي في القصيدة شهراً معدودة . ونهج علي الدرب من المولدين ابو نواس فألقى أكثر قصيدته ولم يبق إلا عيونها ، فجاءت قصائده بيئة القصر . ثم تبعهم البحري فألقى من كل قصيدة يعملها جميع ما يرتاب به فخرج شعره مهذباً . اما ابو تمام فكان لا يفعل ذلك ، وكان يرضى بأول خاطر فنعي عليه

عيب كثير ١ .

وربما كان تهذيب البحري لشعره منصبا على المعاني
الخاطئة ، فان استقام له المعنى أبقاه وإلا القاه بومته . وربما
كان يعود على الالفاظ فيضع لفظاً مكان لفظ حتى تنصع الالفاظ
ويلتئم الكلام ، فان قدر عليه أبقاه والا قذف به . ولا
بد لنا من هذا التخمين والظن فان احداً لم يدلنا
على شعره المحذوف حتى نعلم سبب حذفه . وكل ما بلغنا ان
ابنه أبا الغوث حدث أن أباه أمره قبل موته بحذف هجائه
أبقاءً على مودة الناس وخوفاً على ابنه ، وما نظن أن أبا
الغوث حذف شيئاً قط لانه كان يغضب أن يصلح الناس
بيتاً واحداً لأبيه غير موزون .

قالوا أنشد أبو الغوث قصيدة لأبيه فيها هذا البيت :
وكانّ الايام أوثر بالحسن عليها (يو) م المهرجان الكبير
انشد أبو الغوث البيت هكذا ، وهو من بحر الخفيف
والياء والواو في كلمة يوم زائدتان على الوزن ، ونظر
السامعون في النسخ التي في أيديهم فكانت متفقة على هذا
البيت المكسور ، فقالوا له يا أبا الغوث ، ألا ترى إلى هذا
الغلط على أبي عبادة الذي لا يتهم بمثله ، وقد أجمعت النسخ
عليه ! فقال : هكذا قال الشيخ . فأقبلوا عليه يوضحون له
موضع الكسر ويقطعون له ويزنونه بالبيوت التي قبله والتي
بعده ، وهو غير مستنكر له بذوقه ، وساموه تغييره فأبى

(١) الصناعتين ط ٢ ص ١٣٥

ذلك وقال : « أغثير شعر الشيخ ؟ » فقليل له : هذا رجل قد
وجب له علينا حق وسار له فينا مدح ، ويلزمنا تغيير هذا
الكسر حتى لا يعاب به ، فغضب حتى ظهر فيه الغضب
ظهوراً لم يستحسنوا معه أن يزيدوا في الكلام ^١ .

وكان من التهذيب تلك المحاولات الدائبة في رجوعه عن
اخطائه واصلاحه للمعاني التي لم تكن مستقيمة من قبل .
والبحتري نفسه يقرّ أنه كان يدأب على تحصيل المعنى ويصبر
عليه حتى يتطامن له ويسلس . ومن أحسن معانيه التي جدّ
وراءها أزمئة طويلة حتى وجدها قوله :
لم يدعني كثر العشيات والآصال حتى خضبت بالمقراض
فلما عثر على هذا المعنى قال : مكثت في « حتى خضبت
بالمقراض » اربعين سنة حتى اتممتها ^٢ .

ولم تكن كسرة ذلك البيت في الوزن هي كل ما اهتم به
شعر البحتري من ناحية الوزن فانهم اهتموه بأنه كان لا يقيم
وزن الشعر أحياناً . وقد روي عنه شعرٌ ملحون من اكثر
من طريق ، وقالوا : لو تتبع اللحن في شعره لكان اكثر
من هذا الذي روي واشتهر . وقد هجاه ابن أبي طاهر
على لحنه الكثير هجاء مرّاً مقذعاً ^٣ ، وإن كان هذا عيباً
فأى الناس ليس له عيوب !

(١) الموشح ص ٣٣٠

(٢) و (٣) الموشح ص ٣٣٣

الباب الثالث

مشهور شعره



المشهورات - الاوصاف - اغراض متفرقة -
ظاهرة في مدح المتوكل - الشكوى من
الحراج - الطيف والشيب - الحكمة والشعر .

المشهورات

تنقسم مشهورات البحثري ثلاثة أقسام : قسم كان من
الابيات المفردة أو أنصاف الابيات ، ومن ذلك ما اشتهر
وشاع شيوع الحكم والامثال ، وفقد بهذه السيورة على
افواه الناس نسبتته إلى البحثري ، فما يدري احد انه قائله ولا
من قاله لانه اصبح ملكا مشاعاً ، ومن طبيعة الاقوال
السائرة ان يهتم بها لذواتها دون التعلق بقائلها ، وهذا في
نظري افضل ما يأتي به أديب وحتى لو نسي اسمه ، لانه
يكون اعم نفعاً واكثر استعمالاً شأنه في ذلك شأن كل مخترع
لا قيمة له إلا إذا اقبلت عليه سوق البيع والشراء .

ونحن نردّ للبحثري بعض ما سار من شعره على أفواه
الناس دون أن ينسبوه إليه ، ومنه قوله :
وهل يتكافأ الناس شتى خلاهم وما تتكافأ في اليدين الأصابع
وللباني اليد العليا على الهادم
ولن تستبين الدهر موضع نعمة إذا انت لم تُدلل عليها بحاسد
وأخر العيش أخبار مكررة وأقرب العيش من هو أوائله
الأرض من تربة والناس من رُجل
متى أوت الدنيا نباهة خامل فلا ترتقب إلا خول نبيه
للسيف حدّ حين يسطو وروث
في الأطراف تُعشى أما كن الأشراف
وأشهر قول له قوله :

إذا ما الجرح رُمّ على فسادٍ تبين فيه تفريط الطيب

وأشهر من شعره قسم آخر كان من المقطوعات المستقلة ، أو
اقتطع من القصائد ، وذلك مثل وصف السحابة الماطرة ، وقد
سبق أن جئنا به عند الكلام على الازدواج ، ومثل وصفه
المشهور للربيع وأول أبياته :

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكاً من الحسن حتى كاد أن يتكلم
ولا يخفى أن المشهور عند الأدباء والدارسين يكون
أكثر مما اشتهر عند الجمهور ، ويكون أقل طبقة في الشهرة
من الذائع على كل الألسنة ، وكذلك يكون أطول واذهب
في الفن وأوغل في الدقة . ومنه بعض قطع في المدائح ،

وقطع من الغزل ، وقطع في تحسين الشيب ، وسنعود الى بعضها عن قريب .

والقسم الثالث من مشهوراته قصائد كاملة ، وذلك كقصيدته في رثاء المتوكل وقصيدته السينية في ايوان كسرى .
والأسباب التي اصابته هذه الاقسام بالشهرة من شعر البحتري انما هي نفس الاسباب التي تعمل على اذاعة الافكار الصحيحة ، والعمل على دوام بقاءها صالحة في كل زمن وكل بلد وعلى كل لسان . واسباب البحتري خاصة في ذبوع مشهوراته وبقائها انه استوحى بعضها من حال الناس عامة ، فانتجت الحكمة ، واستوحى بعضها من صور الجمال الدائم أمام كل العيون كصفته للربيع ، واستوحى بعضها من العواطف الخالدة ، او عظمة التفكير ، كما حدث في رثائه للجعفري وللايوان ، فانه قد ارتحل اليهما بفنه وحزنه . وانما كانت وفقته امام الايوان اعظم لأن الحسرة كانت قد ملكت عليه كل جوانبه ، وكان لكارثة الجعفري الفضل كله في انضاج عاطفة الحزن عنده واهلاء افكاره ، فقال ما قاله في الايوان .

وشيء آخر هام جداً كان له القيمة في علو فن البحتري بسينيته^١ ، وذلك انه كان قد عاش في قصور المتوكل ، وراها وهي تبني وتشيد وتبجد ، ورأى بسائطها وعقدها ، وسمع الى مهندسيها وبناتها . فقد كان نديماً للمتوكل - كما

(١) الديوان ص ١٦٧

عرفنا من قبل - وكان كلما حاول وصفها أحس بها معقدة كثيرة
التركيب فبالغ في وصفها ليخلص الأدب من ورطة ضعفه
عن وصف الفن المعقد .

ولكنه مازال يقرب الأدب من الفن ، ويحاول التعبير
حتى جعلها يلتقيان ، واستطاع في وقفته امام الايوان ان
يعبر مرتين : مرة بالمبالغة التي تعودها من قبل ، وذلك في
مثل قوله :

مشمخرّ تعلو له شرفات رفعت في رؤوس رضوى و قدس
لابسات من البياض فما تبصر منها إلا غلائل برّس
ليس يدري أصنع انس لجن سكنوه أم صنع جن لانس
ومرّة بالدقة التي تعلمها من عقد القصور ، فقرب الشاعر
من المهندس ، أو من رجل الآثار في وصفه للآثار الباقية
من الايوان ، وبلغ البحث في سينمته هذه الغاية التي تنقص
دونها الاقلام ، قال :

فاذا ما رأيت صورة انطاكية ارتعت بين روم وفرس
والمنايا موائل وانو شر وان يزجى الصفوف تحت الدرفس
في اخضرار من اللباس على اصفر يختال في صبيغة ورّس
وعراك الرجال بين يديه في خفوت منهم وانماض جرس
من مشيح يهوي بعامل رمح ومليح من السنات بتوس
تصف العين انهم جد احياء فهم بينهم اشارة خرس
يفتلي فيهم ارتياحي حتى تتقراهم يداي بلّس
وانظر الى البيتين الاخيرين فانهما فوق جهد الاديب ،

ولن يتقرى الصور الصامته في الآثار أو يعرف اخبارها
ويكشف اسرارها الا رجل الآثار

على ان هذه السينية كان الغرض الاصيل فيها رثاء الايوان
والتنفيس عن الكرب بهذه اللغة الحزينة التي تبكي كل من
يتفطن لها لا محالة ، واستمع اليه يقول فيها :

وكان الزمان اصبح محمو لا هواه مع الأخص الأخص
واشتراي العراق خطة غبن بعد بيعي الشام بيعة وكس
لا ترزني مزاولا لاختباري عند هذي البلوى فتنكر مسي
وقديماً عهدتني ذا هنات آيات على الدنيات شمس
ولقد رابني نبوء ابن عمي بعد لين من جانبيه وانس
واذا ما جفيت كنت حريا ان أرى غير مصبح حيث امسي
حضرت رحلي الموم فوجه ت الى ابيض المدائن عنسي
اتسلى عن الحظوظ وآسى لمحل من آل ساسان درس
ذكرتهم الخطوب التوالي ولقد تذكر الخطوب وتنسي
بل ان البحتري ينقل حزنه في السينية الى الايوان
ويصوره كئيباً حزيناً يبعث اللوعة ويشير الشجن . ويقول :
وكان الايوان من عجب الصفة عة جوب في جنب ارعن جلس
يتظنى من الكتابة ان يب دو لعيني مصبح او ممسي
مزعجاً بالفراق عن أنس الف عز او مرهقاً بتطليق عرس
عكست حظه الليالي وبات الـ مشتري فيه وهو كوكب نحس
فهو يبدي تجلداً وعليه كلكل من كلاك الدهر مرسي
لم يعبه ان يز من بسط الديباج واستل من ستور الدمقس

حتى الحمرة يشيع فيها حزنه بقوله :
وتوهمت ان كسرى ابر ويد ز معاطي والبلهذ أنسي
حلم مطبق على الشك عيني ام امان غيرون ظني وحدثني
وهذه السينية دونها وصف قصور سامرا ، فقد كانت تلك
الاصواف أغراضاً ناشئة حول الاغراض الاصلية من المدح
او التهنئة .

وقد حاول شوقي ان يقلد سينية البحتري فلم يضيق على
نفسه ويحصرها في وصف منظر واحد كما حصر البحتري
نفسه وضيق عليها . وقد أجاد شوقي ولكنه لم يستطع ان
يصل ما بين الادب والهندسة كما فعل البحتري . وبدا حزن
شوقي في قصيدته حزن اضطرار للنفي ، اما البحتري فلم
يكن مجبوراً ولكنه كان حزيناً حقاً فبث في اركان القصيدة
نعمة تفجر القلوب ١ .

الاصواف

ولو لم يمل البحتري الوصف في شعره لذهب اكثره
بقضاء اغراضه ، ولكنه حين استخدم فن الوصف ابقى على
سجمة شعره ، وخلد بسببه اول ما خلد . اخبر الصولي قال :
سمعت عبد الله بن المعتز يقول : لو لم يكن للبحتري الا
قصيدته السينية في وصف ايوان كسرى فليس للعرب سينية
مثليها ، وقصيدته في البركة ميلوا الى الدار من ليلي نحيبها ،

(١) انظر سينية شوقي في الشوقيات ج ٢ ص ٥٢

واعذاراته في قصائده الى الفتح التي ليس للعرب بعد
اعتذارات النابغة الى النعمان مثلها ، وقصيدته في دينار بن
عبد الله التي وصف فيها ما لم يصفه احد قبله ووصف فيها
حرب المراكب في البحر ، لكان أشعر الناس في زمانه ،
فكيف اذا اضيف الى هذا صفاء مدحه ورقة تشبيهه^١ .

وابن المعتز لا يذكر هذه القصائد الوصفية لانها أقل
شعره ولكنها أفضله بدليل انه ذكرها بذواتها ، فلما أراد باقي
شعره وصفه بالصفاء والركة ، وهكذا يفضل ابن المعتز البحرى
من القليل لا الكثير .

وقد قلنا من قبل انه حين تعرض لوصف قصور العراق
قابل دقتها بغلوه ، وهذه طبيعة تأثير الفن المعقد في الأدب .
على ان وصف القصور وصف للجسم ، وهو ناحية من غنى
لغتنا ، والبحترى يرى هذا التجسيم قوة ، ويرى ان التعبير
الجيد ما جسم لك المعنى كأنه صورة تراها . وفي ذلك يقول
في وصف الالفاظ في الاسماع كالصور امام العيون^٢ :

و كأنها والسمع معقود بها وجه الحبيب بدا لعين حبيبه
واليك بعض اوصافه لتلك القصور . قال يصف الكامل^٣ :
ذعر الحمام وقد ترنم فوقه من منظر خطر المذلة هائل
رفعت لمحترق الرياح سموكه وزهت عجائب حسنه المتخايل

(١) ديوان المعاني ج ٢ ص ٦٣

(٢) العمدة ج ١ ص ٣٨

(٣) الكامل قصر المعتز بالله .

وكان حيطان الزجاج بجوه لجج يمجن على جنوب سواحل
وكان تفويف الرخام اذا التقى تأليفه بالمنظر المتقابل
حبك الغمام رصفن بين منمر ومسير ومقارب ومشاكل
لبست من الذهب الصقيل سقوفه

نوراً يضيء على الظلام الحافل
فترى العيون يجلن في ذي رونق
متلهب العالي أنيق السافل
ويصف « المشوق والمعشوق » قائلاً :

لا زال « معشوقك » يلقى الحياء
من كل داني المزن واهي الخروق
فما خلونا مذ رأيناه من فتح جديد وزمان أنيق
أشرف نظاراً الى ملتقى دجلة يلقاها بوجه طليق
وطالع الشمس على موعده بمثل ضوء الشمس عند الشروق
لم أر كالمعشوق قصراً بدا لأعين الرائن غير « المشوق »
هذاك قد برز في حسنه سبقاً وهذا مسرع في اللحوق
وقال في « الصبيح والمليح » ٢ :

واستم الصبيح في خير وقت فهو مغنى أنس ودار مقام
ناظر وجهة المليح فلو يس طيع حياه معلناً بالسلام
ألبسا بهجة وقابل ذا ذا ك فمن ضاحك ومن بسام
كالمحبين لو أطاقا التقاء أفرطاً في العناق والالتزام

(١) قصران للمعتمد .

(٢) قصران للمتوكل وكانا يجاوران الجعفري .

وكان لا بد ان يتعلق بوصف هذه القصور وصف بركها
وانهارها وبساتينها واثائها . ولما كان وصف بركة المتوكل من
مشهورات البحثري فانا ندعه الى وصف اشياء اخرى كبساط
قصر الساج الذي يقول فيه :

وأرى البساط وفي غرائب نبتة ألوان ورد في الغصون مفتتق
خضره على شجر ترف غصونه من مزهر او مشمر او مورق
فاذا تركنا هذه القصور وما فيها الى غيرها وجدنا
للبحثري في الوصف فرادى وتوأمًا ولا سيما في وصف الحرب
وأدواتها فهو يصف السيف في قوله :

يغشى الوغى فالتوس ليس بجنة من حده والدرع ليس بمعقل
ماضٍ وان لم تمضه يد فارس بطل ومصقول وان لم يصقل
مصغ الى حكم الردي فاذا مضى لم يلتفت واذا قضى لم يعدل
متوقد يفري بأول ضربة ما ادركت ولوانها في يذبل
ويصف السيف والرمح ويحسن الوصف في طاعة الجند
لقائدهم ، وليس ابلغ منه فتأمله جيداً :

نحر السيوف كأنما ضربت لهم ايدي القيون صفائحاً من عسجد
في فتية طلبوا غبارك إنه رهج ترفع عن طريق السؤدد
كالرمح فيه بضع عشرة فقرة منقادة خلف السنان الاصيد
أما الحرب فقد قال فيها كثيراً وسنعرض عليك بما قال
ثلاث قولات ، أولاها في رجاء القائد ان يكف حتى يأتي
الربيع ، والثانية في صفات الجند ، والثالثة وهي التي اشاد
بها ابن المعتز في وصف قتال البحر . أما الاولى فيخاطب

فيها ابن يوسف الشغري في حربه للروم ويطلب اليه ان
ينتظر الربيع وهي :

رمى الروم بالغزو الذي ما تتابعته نوافذه حتى أصبن المقاتلا
غزاهم فافناهم ولم يقتصر لهم على العام حتى جدّد الغزو قابلا
لك الخير أنظرهم لتنتجع الربا منورة أو تحلب الحلف حافلا
فقد غرت بالغارات في وهداتهم ولياً ووسمياً رذاذاً ووابلا
وسقت الذي فوق المعازل منهم فلم يبق إلا ان تسوق المعاقلا
وهذه الثانية في صفات الجند ، وما أروع تصوير التقاء
السيوف بالسيوف فيها :

وعصائب يتهافتون إذا ارتقى بهم الوغى في غمرة الهيجاء
مثل اليراع بدت له نار وقد لفته ظلمة ليللة سوداء
يمشون في زغف كأنت متونها في كل معركة متون نهاء
بيض تسيل على الكهامة فضوها سيل السراب بقفرة بيدا
فاذا الأسنة خالطتها خلتها فيها خيال كواكب في ماء
أبناء موت يطرحون نفوسهم تحت المنايا كل يوم لقاء
أما 'مفضلة' ابن المعتز وهي في وصف القتال في البحر
فمنها هذه الابيات :

غدوت على الميمون 'صبحاً وانما غدا المركب الميمون تحت المظفر
أطل بعطفه ومرّ كأنما تشرف من هادي حصان مشهر
إذا زجر النوتي فوق علاته رأيت خطيباً في ذؤابة منبر
إذا عصفت فيه الجنوب اعتلى له جناحاً عُقاب في السماء مهجر

(١) الميمون اسم مركب القائد احمد بن دينار قائد الاسطول .

إذا ما انكفا في هبوة الماء خلته
 وحولك ركابون للهول عاقروا
 تميل المنايا حيث مالت اكفهم
 إذا اصلتوا حدّ الحديد المذكر
 يسوقون أسطولاً كأن سفينه
 سحائب صيف من جهام وممطر
 كأن ضجيج البحر بين رماحهم
 إذا اختلفت ترجيع عود مجرجر
 ولم يكن اعجاب ابن المعتز بها فحسب ، وانما قال فيها
 أبو هلال^١ : لم يصف احد من المتقدمين والمتأخرين القتال في
 المراكب الا البحتري ، وعدوا قصيدته هذه من عيون قصائده
 وفضلوها على كثير من الشعر .

وأبو هلال يقول^٢ : وأجود ما قيل في سكون الجأش في
 الحرب قول البحتري :

لقد كان ذاك الجأش جأش مسالم على ان ذاك الزي زي محارب
 تسرع ، حتى قال من شهد الوغى لقاء عدوّ أم لقاء حبايب
 وصاعقة في كفه ينكفي بها على أروس الاقران خمس سحائب
 وأبو هلال يقول في البيت الاخير : وهذا البيت أجود
 ما قيل في معناه ، جعل السيف صاعقة ، واصابع الضارب
 سحائب تجود على من يبتغي معروفهما من حيث تقتل اعداءه
 بصاعقتها .

ويتقلب البحتري بين الأليف والمفتوس فتراه يصف الأبل
 قائلاً :

(١) ديوان المعاني ج ٢ ص ٦٣

(٢) ديوان المعاني ج ١ ص ١١٧

يتفرقن كالسراب وقد خُضَّ بن غماراً من السراب الجاري
كالقسي المعطفات بل الأسهم مبرية بل الأوتار
والبحري أوصف المحدثين للخيال واكثرهم اجادة في نعتها
ومن شعره يصف فرساً قوله :

اما الجواد فقد بلونا يومه وكفى بيوم مخبراً عن عامه
جاري الجياد فطار عن اوهامها سبقاً وكاد يطير عن اوهامه
جدلان تلطمه جوانب غرّة جاءت مجيء البدر حين تمامه
واسودّ ثم صغت لعيني ناظر جنباته فاضاء في إظلامه
مالت نواحي عرفه فكأنها عذبات أثل مال تحت حمامه
ومقدم الاذنين تحسب انه بهما يرى الشخص الذي لأمامه
وكان فارسه وراء قداله ردف فلست تراه من قدومه
لانت معافقه فخيّل انه للخيزران مناسب بعظامه
وكان صهلته اذا استعلى بها رعدٌ يقعقع في ازدهام غمامه
واما وصفه المفترس فسنعرض عليك بعض وصفه للاسد
وبعض وصفه للذئب لتدرك غاية الفن في هذا الباب . وقد
قال صاحب الوساطة في وصفه للاسد انه استوفى المعنى
واجاد الصفة ووصل الى المراد ، ومنه قوله يصف لقاء الفتح
ابن خاقان له :

غداة اقيمت الليث والليث مخدر يحد ناباً للقاء ومخلبا
اذا شاء غادي عانة او عدا على عقائل سرب او تقنص ربوبا

(١) ديوان المعاني ج ٢ ص ١١٥

(٢) الوساطة ص ١٠٢

شهدتُ لقد انصفتَه يوم تنبري له مُصلتا عضبا من البيض مقضبا
فلم ارَ ضرغامين اصدق منكما عراكاً اذا الهيابة النكس كذبا
هزبراً مشى ينبغي هزبراً وأغلباً من القوم يغشى باسل الوجه أغلبا
أدلّ بشغب ثم هالته صولة رآك لها امضى جناناً وأشغبا
فاحجم لما لم يجد فيك مطمعا وأقدم لما لم يجد عنك مهربا
فلم يغنه انْ كَرَّ نحوك مقبلا ولم ينجه انْ حاد عنك مُنكببا
حملت عليه السيف لا عزمك انثنى ولا يدك ارتدت ولا حده نبا
وهذا الوصف الرائع بين بطلين رآه صاحب المثل السائر
تقصيراً عما جاء به المتنبي في وصف الاسد ، لان البحري
لم يخلص كل وصفه لليث ١ اما المتنبي فخلص وصفه له .
ووصف البحري للذئب معروف وقصته شائعة في فصول
الدراسة ، وهم يخلقون بينها وبين من وصفوا الذئب من
العرب ومن غيرهم موازات كما فعلوا في قصة وصف الاسد .
الا ان الملحوظ ان البحري حين وصف الاسد خلط حاله
بجالة كما خلط بين الفتح والاسد ، وهذا في رأي اقتداء
بالفرزدق حين أضاف الذئب فتحدث عن حاله معه . وقد
كان عمله خطوة فتحت للمتنبي طريق الوصف الخالص للاسد
كما فتحت للشريف الرضي طريق وصف الذئب خالصا .
وقد اهتم العرب بوصف لقاء الاسد منذ القدم لان لقاءه
شيء يهول ٢ . وكان الذي يلقاه ويقتله يعد عمله مثال

(١) المطالعة التوجيهية ص ٢٧٦

(٢) يوم وليلة ص ٢٥

البطولة وله ان يدل به ويتغنى ، واعظم منه بطولة من قتل
الاسد ولم يدل بقتله ولم يفتخر كما حدثوا عن المعتضد العباسي .

فاذا تركنا هذا الجد الصارم وملنا الى هو البحتري
رأينا عجبا ، واليك وصفه للخمرة والساقى :

وفي القهوة اشكال من الساقى وألوان
حباب مثلها يضحك عنه وهو جذلان
وسكر مثل ما اسكر طرف منه وسنان
وطعم الريق اذ جاد به والصب هيان
لنا من كفه راح ومن رياه ريحان

اغراض منفردة

لقد سبقت اشارتنا الى تفضيل ابن المعتز للبحتري من
اوصافه ١ . ثم اعتذراته للفتح بن خاقان ، وحقاً ان البحتري
قد اجاد فن الاعتذار لان هذا الفن مقارب المدح والغزل
في التخفض ، بل هو اكثر منهما اظهاراً للتذلل وارتداء
لثياب الانكسار ، وهو يجد مادته وعونه من نفس الشاعر
ورقة اسلوبه . وآلة البحتري في ذلك معروفة .

ولقد قيل ان رقة البحتري واحتماله كانا كفيلين بان
يغنياه عن المبالغة ، ولكنه بالغ وما زال يبالغ حتى زاد

(١) عبد الله بن المعتز ص ٤٩

شعره تنوقا ١ . وقد عرفنا من قبل تنوقه في الألفاظ ،
 فيها قد صار تنوقه مضاعفا مزدوجا . وما بالك بالاعتذار
 وهو يطلب كلاما اكثر تنوقا من كلام المدح او العتاب !
 وكان هذا الفن ابتكار النابغة دعتة اليه الحضارة والترف
 واتصاله بملك من طراز ملوك الفرس وأكسرتة هو النعمان .
 والدواعي عند البحتري هي نفس الدواعي ، فالحضارة تغمره
 وقد غرق في ترف القصور العباسية واتصل بملك عربي الشكل
 فارسي الجوهر ، وهو في حاجة وتحنان الى العطاء . قال
 ابو هلال : ولا اعرف احدا من المحدثين بلغ مبلغ النابغة
 فيه الا البحتري فانه قد اجاد القول في صنوفه واحسن
 وابلغ ولم يذر لاحد مزيدا حتى قال بعضهم هو في هذا
 النوع النابغة الثاني ٢ . وأي اعتذار الطف من قوله ؟

يريني الشيء تأتي به واكبر قدرك ان استريبا
 اكذب ظني بان قد سخطت وما كنت اعهد ظني كذوبا
 ولولم تكن ساخطا لم أكن أذم الزمان واشكو الخطوبا
 ولو كنت اعرف ذنبا لما تخالفتني الشك في ان أتوبا
 سأصبر حتى الاقي رضا ك إما بعيذا وإما قريبا
 أراقب رأيك حتى يصح وانظر عطفك حتى يثوبا
 والاعتذار حتى يُقبل يجب ان تهب منه ربح الصدق ،
 ولا تشوبه شائبة الباطل ، فلا تخييل فيه ولا تمويه ، وانما

(١) ديوان المعاني ج ٢ ص ١٩٤

(٢) ديوان المعاني ج ١ ص ٩١

هو صدق صريح كله ، وهذا هو مذهب الاعتذار في الكلام .
وعلى الشاعر ان يتنصل من الذنب ولو بالحلف واليمين
الغموس ، وعليه ان يحشو اقواله بالرجاء وطلب العفو . ولا
يحفى عنك انه كلما أظهر الشاعر الضراعة والمذلة كان ذلك
أشفع له وأقرب الى القبول ، ولا سيما في تلك العصور التي
كان الامر فيها للحاكم المطلق . اما الاعتذار الى الاصدقاء
فقلما حمل شيئاً من معاني المذلة ، بل ربما خلط بالعتاب
والقسوة فيه .

وقد قالوا : إن المعاذير مكاذب . فانه لا عذر في رد
الاعتذار . والمعتذر من الذنب كمن لا ذنب له ^١

ظاهرة في مدح المتوكل

ولقد رأيت من قبل ما قاله عبد القاهر الجرجاني في
معاني النوع النازل الذي انخط له البيهقي الى المتوكل ،
وهو حكم يصدق جد الصدق على كثير من مدائح البيهقي
له . ومن العجيب أن يقول عبد القاهر ذلك ويقول طه
حسين « وربما كان أجود شعر البيهقي ما قيل في المتوكل ^٢ »
ولعل كل واحد منهما نظر الى هذه المدائح من جانب
يختلف عن الآخر ، فنظر عبد القاهر من الناحية الفنية
ونظر طه حسين من ناحية الوضوح والخفاء ، وذلك لاختلاف

(١) العمدة ج ٢ ص ١٢٩

(٢) من حديث الشعر والنثر ص ١١٧

الرجلين فناً وطريقة .

وهناك ظاهرة اخرى في هذا المديح ، تلك ان من بين
قصائد المتوكل كلها قصيدة ميمية مطلعها :

الا هل اتاهـا بالمغيب سلامي

وهل تخبرت وجدي بها وهيامي

يصرح فيها البحثري بانه ركب مع المتوكل سفينة الزو^١
وجعلت تطوف به في القاطول رافد دجلة الذي حفره
هرون الرشيد والذي طمر الآن^٢ ، وبصرح فيها بانه كان
يشرب ويسمع الغناء وذلك حين يقول :

هل العيش الا ماء كرم مصفق

يقرقه في الكاس ماء غمام

وعود « بنان » حين ساعد شدوه

على نغم الالحان ناي « زنام »

ابي يومنا في الزو^٣ الاتحسناً

لنا بسماع طيب ومدام

غدينا على قصر يسير بفتية

قعود على ارجائه وقيام

تظل البزاة البيض تخطف حولنا جآجىء طير في السماء سوامي
تحدرد بالدراج من كل شاهق مخضبة أظفارهن دوامي
فلم أر كالقاطول يحمل ماؤه تدفق بحر بالسماحة طام

(١) الزو سفينة عملها المتوكل . راجع مادة زوى بالقاموس المحيط .

(٢) يوم وليلة ص ٧

ثم انتقل البحتري بالقصيدة بعد هذا المرح واللغو إلى الدين وآل النبي والاسلام والصلاة والصوم والدعاء ، فجاءت فكرة القصيدة على حلاوة ابياتها ضعيفة متضاربة . وهذا النوع من القصائد لآمه النقاد ، وقد لاموا حسان بن ثابت في مدحه النبي وتقديمه للمدح بذكر الخمر في قصيدته : عفت ذات الاصابع فالجواء ، وتصدى ابو العلاء للآئين في رسالة الغفران واخذ يثبت ان الابيات قيلت في الغزل لا الخمر ، وهو إقرار من ابي العلاء بان القصيدة التي تتجه الى الدين يجب ان تبتعد مقدمتها عن الخمر والغناء . ذلك في الشعر القديم . اما في التصوف فذلك امر جديد لم يكن في أفواه أولئك القدامى بمستساغ .

واذا أردت ان تجد لهذه القصيدة شبيهاً آخر في قصائد المتوكل لم تجد ، ولو حاولت ان تسمع في احداهن تصريحاً بالسماع والشرب في حضرة الخليفة فانك لن تسمع ، فهل من سبب وراء هذا السر في التحول عن الفكرة بعد مرة واحدة ؟

لعل هذه كانت في اول مدائحه له ، ثم تنبه للغلظة او نبه اليها فعدل عن التصريح بما يلام عليه المتوكل حين يذاع شعر ندمائه على الناس فيعرفون ما هو مكتوم . والبحتري نفسه يشهد معنا بان قصر المتوكل وما فيه كان حراماً على الناس محجوباً عنهم حجاباً صعباً ، وذلك حين يقول في رثائه للمتوكل :

فأين الحجاب الصعب حيث تمنعت بهيبتها أبوابه ومقاصره
 أو لعل البحتري قد أمر ألا يخوض في هذه المعاني ، ثم
 حددت له الطريق التي يسلكها في مدح الخليفة . والمتوكل
 ذاته كان في أشد الحاجة للدعاية الدينية لانه هدم قبر الحسين
 ومنع الناس من زيارته ، فكان الغضب عليه لهذا العمل
 شديداً ١ . ثم غطى ذلك بهدم البيع والكنائس فعمت
 بليته الناس .

ويرجع هذا الظن عندي قهر المتوكل للبحتري ان يعود
 للقبه القديم ، ثم يزيد في ترجيحه انك ترى البحتري في
 اول مدحه المنتصر - وهو ولي عهد المتوكل والمتهم بقتله -
 يقول له ما لم يقل منه حرفاً واحداً لأبيه :

وآل أبي طالب بعدما أذيع بسرهم فابذعرو
 ونالت اذانهم جفوة تكاد السماء لها تنفطر
 وصلت شوابك ارحامهم وقد اوشك الحبل ان ينبتر
 فقربت من حظهم ما نأى وصفيت من شرهم ما كدر
 قرابتكم بل أشقاؤكم واخوتكم دون هذا البشر
 ومن هم وأنتم يدا نصره وحدا حسام قديم الأثر
 يشاد بتقديمكم في الكتاب وتتلئ فضائلكم في السور
 ولعل نزول شعر البحتري في مدح المتوكل كان ايضاً
 مقصوداً ليفهمه الناس ويتأثروا به ، ولو كانت في الطبقة
 العالية لم يفهم ولم يؤثر . ولذلك جاء كله متكرر المعاني

مملول المبالغات مصبوباً في المظاهر الدينية ، ومن اجوده قوله :
 رُمقتك القلوب لما تراءتْ لكَ وليداً واكبرتكَ الصدورُ
 واكتنى باسمك الرشيد بعلم فيك ماضٍ وجدتك المنصور
 يتولى النبي ما تتولا ه ويرضى من سيره ما تسير
 حزت ميراثه بحق مبين كل حق سواه إفك وزور
 فلك السيف والعمامة والحا تم والبرد والعصا والسرير
 وأمور الدنيا ينفذها التد بير مذ صيرت إليك الامور
 تتوخي الهدى وتحكم بالعد ل وترجو تجارة لا تبور
 ومنه قوله :

لعمرى لقد زرت المصلى بحفل يرفرف في اثناء راياته النصر
 جبال حديد تحتها البأس في الوغى وفيها الضراب الهبر والعدد الدثر
 وسرت بملك قاهر وخلافة ومالك زهو بين ذين ولا كبر
 عليك ثياب المصطفى ووقاره وانت به أولى إذا حصحص الامر
 عمامته وسيفه ورداؤه وسياه والهدى المشاكل والنجر
 ولما صعدت المنبر اهتز واكتسى ضياء وإشراقاً كما سطع الفجر
 فقامت مقاماً يعلم الله انه مقام إمام ترك طاعته كفر
 ألت تسمع في هذه الابيات صوت دعاية للمتوكل ؟
 وليس المقصود منها الا ان تؤثر في جمهور الناس ، لانها لم تسلك
 الا الطريق التي تؤثر في نفوسهم ، ومن يدري ؟ لعل جمهور
 الناس كان غضب على البحري من افراطه في هذه الدعاية ثم
 تربص به الدائرة ، فلما كان منه ما قاله في رثاء أبي عيسى
 ابن صاعد وجد الجمهور رغبته فيه فهاجر الى بلده وقال

لابنه : قم بنا يا بني حتى نطفئ هذه الثائرة بخرجة نلم فيها
ببلدنا ثم نعود^١ ومع ان المتوكل اطلق سراح الفقهاء من
السجون ومن بينهم احمد بن حنبل فان اصحاب هذا الامام
روّعوا نديم المتوكل وشاعره فهاجر ثم لم يعد .

الشكوى من الخراج

واننا لا نسجل هنا حادثاً تاريخياً ، ولكننا نعرض للبحثي
فناً من ادبه كان سببه حب المال والبخل به ان ينفقه ولو
على نفسه وذلك حيث يقول :

واني لاسكن جأشاً الى رباع الكرام واوطانها
وبعدت نفسي من مالها وما ابعدت مال اخوانها
وبخل البحتري ان يسدد من ثمة ضياعه خراج الدولة
مع عرفانه بأن ضياعه التي اقتناها هبة من آل خاقان ،
ولعمري لو اتهم البحتري بالبخل لانه امسك ماله فلم ينفق
لما كان ادلّ على اتضاعه من بخله على الدولة بحقوقها - الا
اذا كان مقصوداً بالظلم كما صور في بعض أقواله - وهو لم
يدع حاكماً يستطيع أن يشكوه او يشكو اليه الا فعل . وكانت
نفس البحتري تطمع دائماً في ان تأخذ ولا يؤخذ منها ، فهل
يرى الخراج الذي ضرب عليه يحطه الى المساواة بالناس ، فهو
يعمل على الترفع عن هذه المساواة ويتنبّل^٢ ، وهو يدلك

(١) الموشح ص ٣٤٣

(٢) معجم الادباء ج ١٩ ص ٢٤٩

على هذه النفس بقوله حينما عاد الى وطنه :
وكان رجائي أن أعود مملكا فصار رجائي أن أعود سليما
وحيث قد أردنا ناحية الفن فلننظر في سطور شكواه
حتى نستطيع ان نفهم منها نفسية البحري ثم اتجاهات معانيه .
وانه ليرجو احد الحكام ألا يسأله عن الخراج فيقول له :
أعطى الرعية حقها من عدله في السر مجتهداً وفي الاعلان
غير العنوف الفظ حين يجد في جمع الخراج ولا الضعيف الواني
وهو في هذين البيتين يعرض بحاكم آخر كان يعنف في جمع
الخراج ، ليوحي الى الحاكم الممدوح ألا يأخذه منه . والبحري
يلطف المعنى والغرض بالمقابلة التي جاء بها في قوله « ولا الضعيف
الواني » .

ويقول للمعتمد :

وبقيت تفديك الأنام وانه ليقل للمفدي فداء الفادي
أخشى الخراج وقد دعوت لعظمه ملك الملوك ورافد الرفاد
والبيت الاول ظاهر الثقل لتكرار كلمة الفداء ومشتقاتها .
ويقول لابراهيم بن المدبر وكان يسد عنه الخراج كل عام :
ولم لا أغالي بالضياع وقد دنا علي مداها واستقام اعوجاجها
اذا كان لي تريبها واغتلها وكان عليك كل عام خراجها

الطيف والسبب

إن احتاج باب من أبواب الشعر الى الرقة فالنسيب
أحوج . وقد رقّ البحري في غزله حتى كاد ينقص في

مشيته ، وجاء بما لم يكن في حسان المعاني ، وديوان
شعره يوج بهذا الفن موجا .

إلا اننا نخطو في سرعة الى ما هو أهم ، فنتكلم عن
الطيف ، ونتكلم معه عن الشيب لانهما في غزل البحتري
قرينان . ولقد اسرف البحتري في ذكر الطيف بحيث يكاد
يكون من النادر الا تكون له قصيدة عراقية إلا وفيها
مناجاة للطيف والخيال .

ولم يكن الكلام في خيال الطيف بدعة البحتري ،
وانما هو قد صار خريزة من عقد الغزل منذ القدم ، وأقدم
من استخدمه قيس بن الخطيم فقال :

أنى سربت وكنت غير سروب وتقرب الأحلام غير قريب
ما تمنعي يقظى فقد تؤتينه في النوم غير مكدّر محسوب
كان المنى بلقائها فلقيتها وهوت من هو امرى مكذوب
واستخدمه عمرو بن قميئة ، وهو أقدم من امرى القيس
فيما يقول الرواة ، وينسبون اليه انه قال :

نأئك أمانة الا سؤالا وإلا خيالا يوافي الخيالا
خيالي يخيل لي نيلها ولو قدرت لم تخيل نوالا
ويقولون انه لو صح لكان اغرب معاني القدماء ، ويقولون
إنه ابلغ ما قيل في بخل المعشوق . اما البلاغة في تصوير
البخل فصحيحة ، ولكني لا أرى غرابة على قديم او جديد
في تصوير الخيال ، إذ هو ليس مخترعاً يحتاج الى تبدل
حالات العلم ، ولكنه شيء من عمل الطبيعة والفطرة يجوز

ان يكون قد ساور آدم حينما كانت تفترق عنه حواء .
وينسبون لطرفة معنى في الخيال مبتكراً ، وهو انه
طرده من لدنه فقال :

فقل خيال الخنظلية ينقلب اليها فإني واصل^١ حبل من وصل^٢
وتبعه جرير فقلده قائلاً في طرد الخيال ١ :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجعي بسلام
وفيا يروون ان عمر بن عبد العزيز حين صار خليفة منع
الشعراء عن بابه إلا جريراً ، لان الشعراء صرحوا بالاثم في
غزلهم غير جرير فانه أرجع عن بابه صائدة القلوب . والنقاد
يروون ان عمر قد رضي عفة جرير في هذا البيت إذ رد
الحبيب ، ولكن الأمر كان اكثر من هذا فعمر يعلم ان
البحثري يرد طيفاً ، وهو كلام أمعن في العفة وأوغل في
الطهارة وأدق في الفن .

ومن أقوال ابن الخطيم وعمر بن قتيبة اخذ الاسلاميون
والمحدثون اكثر معانيهم في الخيال والطيف^٢ وقد استخدمه
في الغزل البعيث والنميري ومسلم بن الوليد وابو تمام ودعبل
الحزاعي وابن الرومي والبحثري . ولكن ليس لأحد ممن
سبق او لحق ما للبحثري في الخيال كثرة وتقليباً وتنويعاً .
على ان كلام اولئك كان مجملاً عن زيارة الطيف او خاطراً
يفيض ثم يفيض . ولكن البحثري لعب بالطيف كل

(١) زهر الآداب ج ٣ ص ١٢٦

(٢) ديوان المعاني ج ١ ص ٢٧٦

ملعب بديع .

ومن معاني البحري فرّج الذين جاءوا بعده من الشعراء
أمثال علي محمد الايادي وعبد الكريم بن ابراهيم . ومن
اقوال البحري في الطيف ، وهو من ألطف ما قال فيه :
ولم انس إسعاد الكرى بدنوها وزورتها بعد الهدوء وما تدري
وأخذي بعطفيها وقد مال ردفها بطيعة العطفين مهضومة الخصر
عناق يروني غلتي وهو باطل ولو انه حق شفى لوعة الصدر
فقد جعلك البحري تحب ان ترتوي من هذا الباطل .

وقال :

بعثت طيفها إليّ ودوني وخذُ شهرين لهباري العتاق
زاروهناً من الشام فحيّا مستهماً صباً بأعلى العراق
ففضى ما قضى وعاد إليها والدجا في ثيابه الاخلاق
قد اخذنا من اللقاء بحظ والتلافي في النوم عدل التلاقي
ومن قوله فيه ، وكأنه كلام جديد يدق باب المسامع

لأول مرة :

أخيال علوة كيف زرت وعندنا أرق يُشرد بالخيال الزائر
طيف ألم بنا ونحن بمهمه مرّت يشق على الملم الخاطر
أفضى الى سُعث تطير كراهم روائح قود كالقسي ضوامر
حتى اذا نزعوا الدجا وتسربلوا من فضل هلهلة الصباح الغائر
ورموا الى شعب الرحال بأعين يكسرن من نظر النعاس الفاتر
أهوى فاسعف بالتحية خلصة والشمس تلمع في جناح الطائر
فانظر الى اشفاق البحري على الارق من ان يشرده الطيف

الزائر ، ثم انظر الى تصويره الطيف يلاحق الراكب حتى الصباح . واما التعبيرات فيكفيك ان تنظر في اقواله : أرق يشرد بالخيال الزائر - يشق على الملم - نزعوا الدجا - تسربلوا من فضل هلهلة الصباح - أعين يكسرن من نظر النعاس - الشمس تلمع في جناح الطائر . انظر الى هذه التعبيرات واستيقظ لها لتعلم انها كانت للبحثري إلهاماً يعجز الشعراء .

وكان من جمال الصنعة ودقتها حين ذكر الطيف ان زواج البحثري بيده وبين ما يشابهه ، فقرن كثيراً من أطراف حبيبته وخیالاته بذكر الشيب أو التحسر على الشباب أو غلبة الهم والحزن . وبين الفكرتين نسب قوي ، اذ يبتدىء صدّ النسوة للرجال عند بادرة الشيب . وكما انها ظاهرة في الاجتماع فقد جعلها البحثري ظاهرة في اتصال المعاني وهو اتصال صادق كما ان تلك ظاهرة صادقة . ولم يسبق لأحد من قبلنا ان يلتفت الى هذه الظاهرة في نسب البحثري هذا الالتفات . وقد اتخذناها دليلاً على تماسك سلسلة المعاني في ذهن البحثري .

وكثيراً جداً ما يلتقي هذان القرينان معاً في القصيدة الواحدة بديوان هذا الشاعر فيكوّنان شطراً كبيراً منها ، وقد نتج من ترافقهما توافق معنيين آخرين هما الشباب وشخص الحبيب أو شخص الحبيب وحده دون ان يذكر الشباب لانه مفهوم ، واذا صح ان يكون الازدواج ايضاً

في الخيال كما هو في اللفظ والمعنى ، فان الازدواج بين كل اثنين من هذه المعاني الاربعة عند البحري قوي جميل . وإذن لم يكن ذكر البحري لأطيافه وخيالاته كثيراً فقط كما قالوا ، ولكنه كان ايضاً فناً يعلّب المعاني ، ويكاد يستنفدها . والبحري جسم الطيف ولقيه وعاتبه وودعه ، وحادثه وصدّ عنه وعنفه وطرده ، ووقاه الطيف ان يلام على معنى غزلي ان خرج به عن تقاليد الغزلين^١ .

ومن اقواله في الطيف والشيب في قصيدة واحدة :

قرب الطيف منتهاها فاصبح ت حديثاً بناقض العهد عهدا
سكن لي اذا دنا ناء ليا ناً ومنعاً فازداد بالقرب بعدا
سألتني عن الشباب كأن لم تدّر ان الشباب قرض يؤدي
لم بين عن زهادة فيه لكن آن للمستعار ان يستردا
ومن قوله :

وإني وجدت فلا تكذب سواد الهوى في بياض الشعر
ولا بدّ من ترك احدي اثنتي ن إما الشباب واما العمر
الم ترّ للبين كيف انبرى وطيف الحبيبة كيف احتضر

واقوال البحري في الشيب تحسناً وتحسراً وتقييحاً قد اشتهر منها الكثير ، ولا سيما القطعة التي تحسّن الشيب ومطلعها^٢ :

(١) عبد الله بن المعتز ص ٧٤

(٢) الديوان ص ٤٣٥

ها هو الشيب لائماً فافريقي واتركيه إذ كان غير مفيق
ومن احسن ما رثي الشيب قوله :

لا أرى العيش والمفارق بيض إنما العيش والمفارق سود
وأعد الشقي جداً ولو اء يطى غنا حتى يقال سعيد
من عدته العيون وانصرفت عنه التفاتا إلى سواه الخدود
ومن جيده :

عنت كبدي قسوة منك ما إن تزال تجدد فيها ندوبا
وحملت عندك ذنب المشي بـ حتى كأني ابتدعت المشيبا
ومن أجوده قوله :

نا كرت لمي ونا كرت منها لبس سوء الاخلاق والاعراض
شعرات أقصهن ويرجع من رجوع السهام في الاغراض
وأبت تركي الفديات والآ صال حتى خضبت بالمقراض
وقد سبق لنا ان تحدثنا عن البيت الاخير عند ترقية
معانيه . والحق أن الذي يختار للبحثري من اوصاف الشيب
يضل في الاختيار .

الحكمة والسمر

حين أجمع القدماء على تقديم البحتري سموه بالشاعر ،
وقالوا إنه جاء بشعر فغنى ، ولم يعد أحد يستحق - في
نظرهم - أن يذكر بهذا اللقب غيره . فلما قال ابو العلاء
قولته : المتنبى وأبو تمام حكيمان والشاعر البحتري ، اول
الناس قولة ابي العلاء على هواهم ... وسبق إلى افهامهم ان

أبا العلاء قد سلب الحكمة عن البحتري كما سلب الشعر عن صاحبيه ، وصدّ الناس عن أن يدرسوا حكمة البحتري . ولكن أبا العلاء لم يرد ما فهمه الناس وإنما أراد - ولا رأي غيره - أن الثلاثة شعراء وأن الثلاثة حكماء ، ولكنك تقرأ حكمة البحتري شعراً لطيفاً ، وتقرأ شعر الآخرين حكمة وعللاً . وما أظن أبا العلاء يليق به أن يريد غير هذا . وإذن فالبحتري حكيم كما هو شاعر ، بل هو الشاعر

الذي استطاع أن يصبغ الحكمة بصبغ الشعر ، ولم يجعلها كلاماً مستقلاً يمكن أن يقطع من القصائد ، بل سبكها قديمة وجديدة في ثنايا كلامه فلم تحسّ إلا أنها أضلاع من تعبيراته لا تفترق عنها ولا تقطع منها . وهل كان يمكن البحتري أن يبتعد عن الحكمة والتفلسف والعصر كله اشتغالاً بالحكمة والفلسفة ؟ إنه وإن كانت العلوم والمنطق والفلسفة في المكان الثاني من العلم فإنه لا يستطيع أن يخرج من نطاق التأثيرها شاعر مهما ابتعد به طبعه عن غمارها .

واليك بعضاً من حكمه غير ما عرضنا له من قبل في أثناء الكتاب تحت أغراض أخرى ، يقول :

يا بن نهيكٍ احدثه عجب والدهر مثير من الاعاجيب
والشطر الثاني حكمة وكأنما جاءت لا يستغني عنها
الشطر الأول فلم تنفصل عنه ولم تنصع .

ومثله :

أنت نعيمي وأنت يؤسي وقد يسوء الذي يسرّ

ومثله :

إذا شئت إلا تعذل الدهر عاشقاً على كمد من لوعة الحب فاعشق

•
ولقد أصابت البحثري نوبات فلسفية فاعتقد في اختلاف
الافكار باختلاف الاجناس ، وقال :

إذا تشاكلت الاخلاق واقتربت دنت مسافة بين العجم والعرب
واعتقد كذلك في اختلاف الطبائع فقال :

لولا التباين في الطبائع لم يقم بنيان هذا العالم المجهول
واضطرب في رأيه في المرأة فأمن بها حيناً وكفر بها
حيناً آخر ، فهذا الذي يقول في ام المعتز :

ابوه البحر ساح لنا نداه ففاض وأمه ماء الغمام
هو نفسه الذي يكفر بالمرأة في القصيدة المنسوبة اليه في
رثائها في قوله :

أتبكي من لا ينازل بالسيف مشيحاً ولا يهز اللواء
والابيات مشهورة . ولعل هناك مؤثرات شجعت البحثري
على ان يرثي ابنة الطوسي هذا الرثاء الذي ظلم فيه المرأة .
ولكنها كانت مرة واحدة ثم لم يعد اليها .

ويقول البحثري في احوال الناس وتقلبها شيئاً كثيراً ،
فمقول في سترهم الحيانة بالخلف :

ما أخون الناس للعهود وما أشد اقدامهم على الخلف
وفي الطبائع والاخلاق تدل على الناس يقول :

ومتى سألت عن امرئ اخلاقه صدقت عليه أدلة وشواهدا

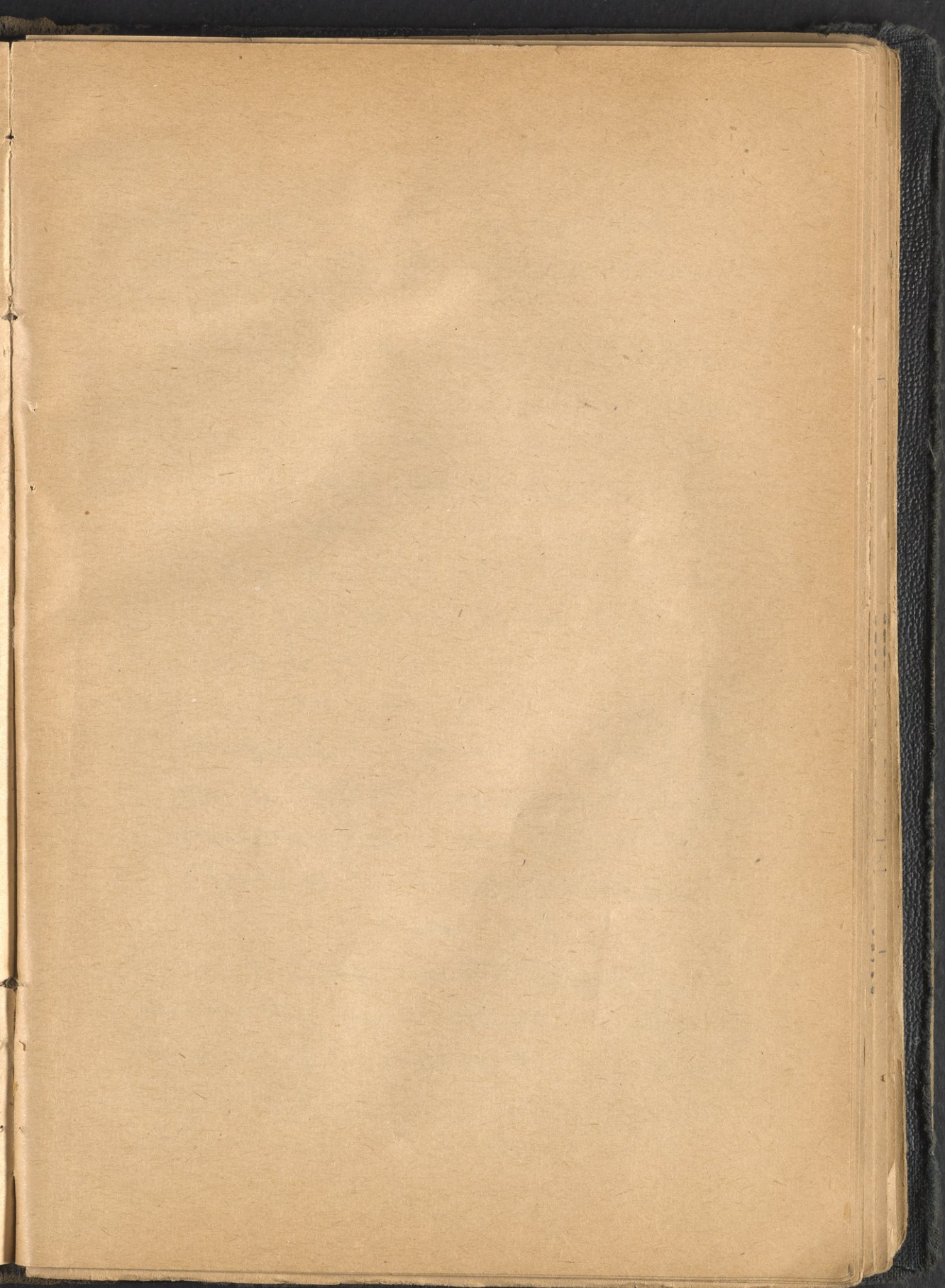
والناس ضربان اما مظهر مقة
وما الناس الا واحد غير مالك
يثنى بنعمى واما مظهر حسدا
لما يبتغي او مالك غير واجد
ويقول في الدهر :

كيف تقضي لي الليالي قضاءً
وعجيب ان الغيوث يرحي
يشبه الحق والليالي خصومي
هن من لا يرى مكان الغيوم
منع الدهر ان يسوي في القسمة
بين المحظوظ والمحروم
ويقول في التجارب والاستنباط منها :

قد نقلت نوب الايام من شيمي
تجارب ابدلتي غير ما خلقي
لكل نائبة رأي اجانبه
وتوسع المرء ابدالاً تجاربه
اذا اقتصرت على حكم الزمان فقد
أراك شاهد امر كيف غائبه
وقال في التواضع :

وتواضع لولا التكرم عاقه
وقل في الرأي ، ولم يقل مثله أحد من الشعراء :
يتأنى بغى التعجل والاء
جل في بعض شأنه يتأنى
مدرك بالظنون ما طلبوه
بفنون الاخبار فنا ففنا
لا ترد عند من تخير رأيا
واطلب الرأي عند من يتظنى

هذا هو البحتري الحكيم ، او البحتري الشاعر الذي
نض بسلوب القول العربي الى درجة معجزة من الرقي ، وقد
مات بعد ثمانين في بلده «منبج» بالسكنة القلبية ولكن صوته
لم يسكت قط ، ولن يسكت له ابد الدهر صوت بكاء ،
ولا لحن غناء ..



مراجع الكتاب

١	الأدب التوجيهي	لجماعة من الاساتذة
٢	أسرار البلاغة	للجرجاني
٣	الأغاني	للأصفهاني
٤	البحثري	لجرجس كنعان
٥	تاريخ آداب العرب	لرافعي
٦	تاريخ بغداد	للخطيب
٧	تاريخ الشعوب الاسلامية	لبروكلمان ترجمة البعلبكي وفارس
٨	ثمار القلوب	لثعالبي
٩	حياة الحيوان	للدميري
١٠	دلائل الاعجاز	للجرجاني
١١	ديوان البحثري	طبعة بيروت
١٢	ديوان المعاني	لأبي هلال العسكري
١٣	الرؤوس	لمارون عبود
١٤	رسالة الغفران	للمعري
١٥	زهر الآداب	للحصري
١٦	السنن النفسية	لغوستاف لوبون ترجمة زعيتو
١٧	شرح عقود الجمان	للسيوطي

لأحمد شوقي	الشوقيات	١٨
لابي هلال العسكري	الصناعتين	١٩
لعبد السلام رستم	طيف الوليد	٢٠
للمعري	عبث الوليد	٢١
للمؤلف	عبد الله بن المعتز	٢٢
للمؤلف	عبقريّة ابي تمام	٢٣
لابن رشيق	العمدة	٢٤
لجواشون ترجمة لاوند	فلسفة ابن سينا	٢٥
للفيروز ابادي	القاموس المحيط	٢٦
لعزالدين بن الاثير	اللباب	٢٧
لضياء الدين بن الاثير	المثل السائر	٢٨
للمعري	مسالك الابصار	٢٩
لجماعة من الاساتذة	المطالعة التوجيهية	٣٠
لياقوت	معجم الادباء	٣١
لابن هشام	المعني	٣٢
لغوستاف لوبون ترجمة صادق رستم	مقدمة الحضارات الاولى	٣٣
لتحقيق شكري فيصل	مقدمة المرزوقي	٣٤
لطه حسين	من حديث الشعر والنثر	٣٥
للأمدي	الموازنة	٣٦
للمرzbاني	الموشح	٣٧
لعبد السلام هرون	همزيات ابي تمام	٣٨
للقاضي الجرجاني	الوساطة	٣٩
للمؤلف	يوم وليلة	٤٠

فهرست

صفحة

۳

مقدمة

۹

الباب الاول : مزايا الشاعر

- الى شبهة الحضارة ۹ - المزاج الحاد ۱۵ -
- انتظام الدراسة ۲۷ - التقليد والطبع ۳۸ -
- الاجماع عليه ۴۴

۴۹

الباب الثاني : مسالك طريقته

- اللفظ المفرد ۴۹ - اللفظ مع اللفظ ۵۵ -
- التجانس ۵۹ - تنضيد المعاني ۶۷ - معراج
- الرقى ۷۲ - بناء القصيدة ۸۰

الباب الثالث : مشهور شعره

المشهورات ٨٧ - الاوصاف ٩٢ -

اغراض مختلفة ١٠٠ - ظاهرة في مدح

المتوكل ١٠٢ - الشكوى من

الخراج ١٠٧ - الطيف والشيب ١٠٨ -

الحكمة والشعر ١١٤

مراجع الكتاب

فهرست

للمؤلف

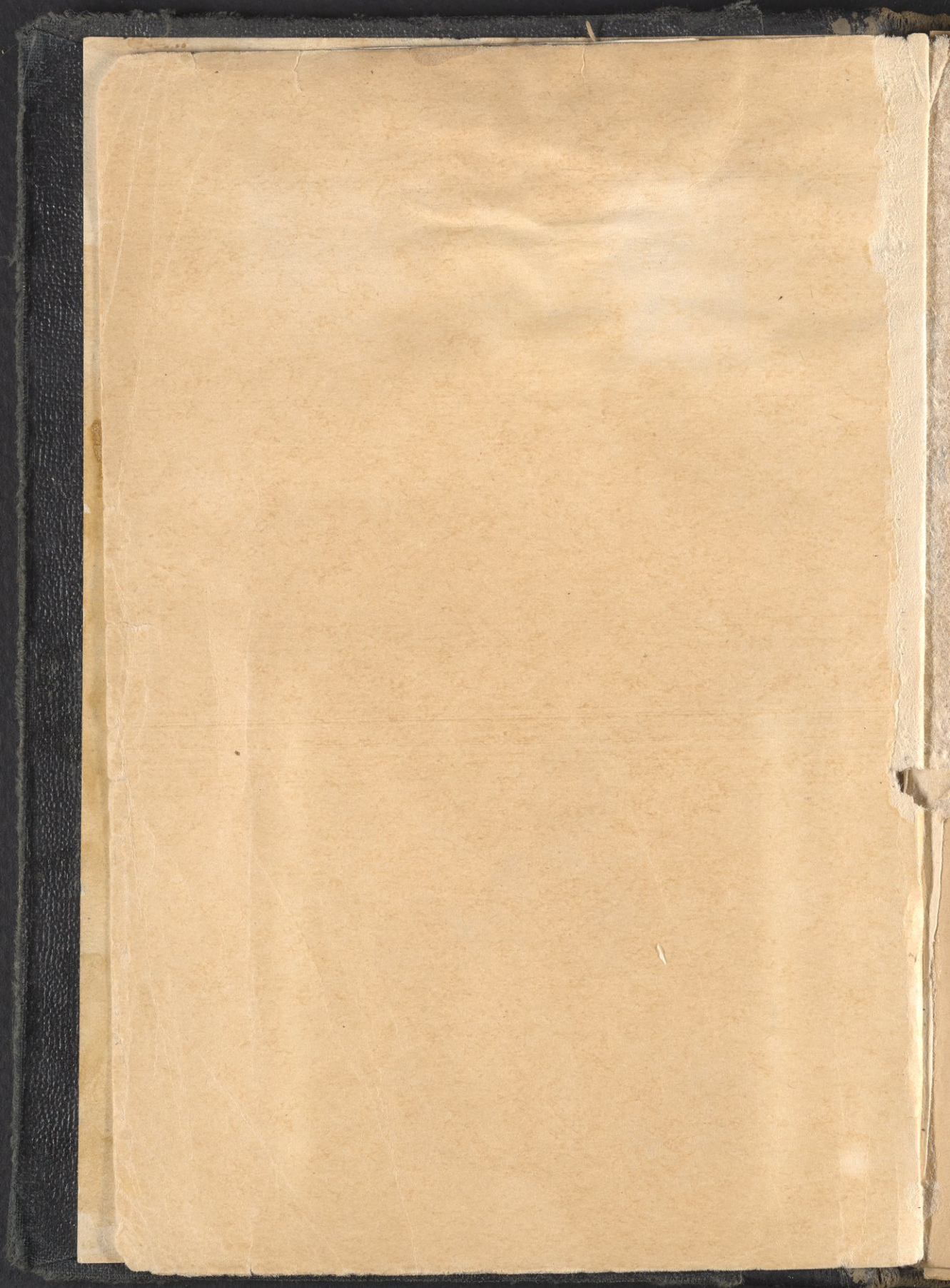
١٩٤٨	النكتة المصرية
١٩٤٩	يوم وليلة
١٩٤٩	ملحمة الفالوجة
١٩٥١	عبد الله بن المعتز
١٩٥١	عبقريّة أبي تمام
١٩٥١	أبو طالب
١٩٥٣	عبقريّة البحري

يصدر قريباً

- ١ - النقد التطبيقي لطلبة البكالوريا في سوريا ولبنان
- ٢ - حول ابن المعتز كتاب في النقد التطبيقي
- ٣ - زينب سيدة الطف قصة أدبية تاريخية

وكان الفراغ من طبعه
في يوم الاثنين الواقع في التاسع
من شهر شباط (فبراير) سنة ١٩٥٣
وذلك على مطابع

دار الشرف
للنشر والطباعة والتوزيع
بيروت - لبنان



AUC - LIBRARY



DATE DUE

 A.U.C. 15 DEC 1997	 A.U.C. 1 JAN 1998
 A.U.C. 29 DEC 1997	 A.U.C. 2 MAY 1999
 A.U.C. 12 MAY 1998	 A.U.C. 23 MAY 1999
 A.U.C. 28 MAY 1998	 A.U.C. MAR 2000

UC - LIBRARY

b. 11879385

1. 13192620

